الإصدار: 77



التغيير بالقـــراءة



د. أحمد عيساوي





التغيير بالقراءة

حين تغير القراءة والمعرفة حياتنا

د. أحمد عيساوي

الإصدار: 77 (ينـاير 2014م / صفـر 1435هـ)

الإخراج الفني: محمود محمد أبو الفضل

د. أحمد عيساوي

من مواليد الجزائر، حاصل على دكتوراه الدولة في الفكر الإسلامي، يعمل أستاذا بجامعة باتنة، وهو عضو برابطة الأدب الإسلامي العالمية.

من مؤلفاته: «الإعلان من منظور إسلامي»، و«منهجية الدعوة الإسلامية»، و«آفاق تدريس العلوم الإسلامية»، و«أعلام الإصلاح الإسلامي».. وغيرها، إضافة إلى العديد من الدراسات والأبحاث بالمجلات والدوريات العربية.



نهر متعدد... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

يناير **2014** م / صفر **1435**هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

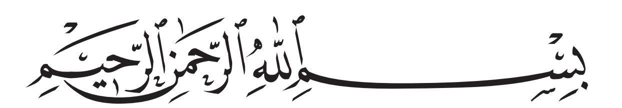
رقم الإيداع بمركز المعلومات: **169 / 2013**

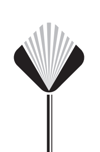
تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **2013 / 448**

ردمك: **978-99966-54-12-1**

فهرس المحتويات


بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وضعت التحولات التكنولوجية الحديثة الإنسان في معترك من التحديات المعرفية والقيمية والسلوكية، وجعلته في حيرة من أمره سواء أقبل الانخراط في تيار تلك التحولات، فيستجيب لها، طوعا أو كرهها، أم اختار رفضها وطرحها مهما كلفه موقفه ذلك من خسائر على المستوى القريب والبعيد.

ومن أبرز التحديات التي أنشاها عصر القفزة النوعية في مجال وسائل الاتصال ووسائط المعرفة أن أصبحت القراءة تعرف خللا ملحوظا، حيث نافس الكتابَ كلٌّ من الإنترنيت والصورة، ووضعا الإنسان إزاء وسائل وفرص جديدة تمتاز بالطرافة والجد ة والسرعة والتنوع، وانصرف التلاميذ والطلبة وعموم الناس عن الكتاب باعتباره الوسيلة التي ظلت مصاحبة للإنسانية آلاف السنين.

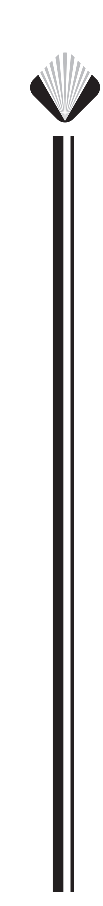
وإذا كان الغالب على الدارسين أن يتخذوا مواقف متسرعة من تلك الوسائط التكنولوجية الحديثة ، فإن التحليل العلمي المتوازن يقتضي الوقوف على أبعاد تلك الظاهرة، والبحث في الآثار الناجمة عنها معرفيا ونفسيا ووجدانيا واجتماعيا، ومقارنتها بالأوضاع التي تنشئها القراءة في الكتاب.

وقد حاول الباحث أحمد عيساوي أن يضع إطارا منهجيا لتلك المعالجة، من خلال الانطلاق من فلسفة قدرة القراءة على إحداث التغيير من الحالة السلبية إلى الحالة الاجتماعية، من الجهل والأمية إلى المعرفة والتعليم، ومن الاتكالية إلى الفاعلية، ومن الانبهار إلى المشاركة، ومن الانفرادية إلى التواصل الاجتماعي.

وقد بين، من خلال بعض الدراسات الميدانية، أن العزوف عن الكتاب والقراءة أنشا جيلا من الشباب يعاني، في العديد من الحالات، من الضحالة المعرفية والبساطة المنهجية، والعقلية الانتقائية التجميعية، مما يعتبر من الآثار البعيدة للزهد في الكتاب والقراءة والانجذاب نحو الإنترنت والكتاب الإلكتروني.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء الكرام، إسهاما منها في التذكير بقيمة الكتاب والقراءة سبيلا إلى التغيير، دون أن تحط من أهمية الوسائل والوسائط الحديثة التي تظل في حاجة إلى عقل موازن ومرجح ومنتبه أثناء ولوج عوالمها، ،سائلة المولى أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء...

إنه سميع مجيب.



مقدمة

تفرست مليا ولأمد بعيد في حال الأمم المتقدمة، وجلت بخاطري وبصري وتفكيري فوجدتهم يتسنمون كل يوم أولى مراتب الإبداع، وأعلى درجات الابتكار، وأسمى مستويات الاختراع والإضافة والتوقيع في سجل النهضة والتنمية والتقدم والرقي، كما كنا يوما ما، حين فهمنا وعملنا بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ..﴾ (آل عمران: ١١٠). فهم يعملون ويقدسون العمل، وهم يكدون ويقدسون الكد والجد، وهم يحترمون العامل والجاد والمنضبط والمنتج والمبدع والمبتكر، وكل صاحب إرادة خيّرة في البلاد، وهم ينتجون بوفرة متميزة في عوالم الحياة العديدة، حيث يبدو تميزهم في عالم المعرفة والتقانة، وعالم الأشياء والمنجزات.. وهم.. وهم..

وتلا ذلك التملي العميقَ تمَلٍ وتوسم مثلِه في حال العرب والمسلمين: الخائر، الضعيف، المتراجع، المتردي، المتنكب في شتى عوالم الحياة: المعرفية والتقنية والشيئية منذ قرون التخلف التي طال أمدها، فوجدتهم – للأسف الشديد – في ذيل الأمم، وفي آخر ترتيب وتصنيف: معنوي ومعرفي وشيئي، فهم – للأسف الشديد – غير قادرين على الخروج من مأزق التخلف، بل مازالوا بعد لم يضعوا رؤاهم وتصوراتهم وعقولهم ومشاعرهم وإراداتهم وأقدامهم على المنفذ الحقيقي للمنهج القادر على إخراجهم من حمأة التردي وأسن التخلف، مع العلم أن هذا المنهج بين أيديهم منذ قرون طويلة، وقد نال حظه من التجريب الصحيح والسليم، فأثمر وأعطى خير القرون، التي بشّر بها صاحبه محمد ﷺ، وهو يقول مخبرا عن خيرية التجربة: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وعدد عليه الصلاة والسلام القرون ثلاث أو أربع مرات (الحديث رواه أبو داود في سننه).

وقد آل حالهم منذ قرون التخلف، وفي الغالب دون إعقال لحظات التألق المعرفي والأخلاقي والحضاري، إلى: تخلف مركب، وانهيار مستمر، وعُقد

نفسية ووجدانية وروحية واجتماعية مستعصية عن الحل، وتعسر حياتي مميت، أفقدهم القدرة على ترسم طريق النجاة، ومعرفة المنهج الصحيح والأمثل للنهضة والتوثب الحضاري، فاستقوا من تجارب الآخرين بوعي أو من دون وعي، علّهم يجدوا ما وجدته تلك الأمم الناهضة، دون أن يتفطنوا البتة إلى أن أسس وتطبيقات المنهج السليم والصحيح هي بين أيديهم وظهرانيهم، يتلوها ويعرفها الخاص والعام.

ذلك المنهج الذي بدأ به صاحب الشريعة السمحاء محمد ﷺ مع ربه، وهو يفتتح المادة الأولى في مشروع التغيير الإسلامي بالقراءة والمعرفة (إقرأ)، فلا سبيل إذن للتغيير في هذا الدين غير سبيل المعرفة، ولا وسيلة للتغيير بداءة غير وسيلة وآلة القراءة والكتابة والتعلم والتعليم، ولا تأسيس في هذا المنهج الرباني الصافي غير المعرفة الصحيحة السليمة المُوصلة للمعرفة الصادقة واليقينية المطلقة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق: ١). [(١)]

١- سبق وأن قدمتُ سلسلة دراسات عن مقومات المشروع الحضاري الإسلامي عند نبيي الله نوح وموسى عليهما الصلاة والسلام، ثم في سورة العلق والمدثر والعصر ، حيث اختزلتْ هاته السور الثلاث مقومات المشروع الحضاري الإسلامي ومواصفات حامل المشروع وآليات حماية وصيانة المشروع من الانحراف. والفكرة مستوحاة أساسا من شيخنا الراحل المرحوم محمد الغزالي، من كتابه القيم الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، الذي درسته للطلاب وطورت فكرته. فسورة العلق تضمنت المنظومات التسع التي تقوم عليها مشاريع النهضة: [المنظومة المعرفية، العقدية، المنهجية، القيمية، الوسيلية، التعبدية، القانونية، المالية، الردعية]، وسورة المدثر تضمنت المواصفات الخاصة بحامل المشروع ممثلا في الآيات الخمس الأوائل، وفيها مواصفات رسول الله ﷺ التي تصلح لحمل هذا المشروع التغييري بين الناس: [الحركي النشيط، الفاعلية والقومة والهبة، النذارة والإبلاغ والإعلام، شعارية المشروع، الطهارة المادية، الطهارة المعنوية والروحية، التضحية والبذل، الأخلاق والصفات الحميدة، تحديد ورسم الأهداف]، ثم آليات صيانة المشروع وحفظه في آخر سورة نزلت العصر: [التسبيح، الحمد، الاستغفار، التوبة]. وهذه الحلقات المنشورة هي:- ١ - مقومات المشروع الحضاري عند نبيي الله نوح وموسى، الوعي الإسلامي، عدد ٤٩٦، جانفي ٢٠٠٧. ٢ - مقومات المشروع الحضاري في سورة العلق، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٤٩٨،- فبراير ٢٠٠٧م. ٣ -- مقومات المشروع الحضاري في سورة العلق، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٤٩٩، مارس ٢٠٠٧م.
٤ - مواصفات حامل المشروع في سورة المدثر، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٠٠، أفريل ٢٠٠٧م.

وفي هذا السياق يقول الشيخ عمر عبيد حسنة: «.. وإن عامل النهوض والتنمية لا بد أن يبدأ بالعلم والتعليم، وأن نهضتنا وثقافتنا ورسالتنا وحضارتنا انطلقت من (إقرأ) ولم تبدأ بآية تكليف آخر، حتى الصلاة عماد الدين، والجهاد ذروة سنامه، فلا عبادة ولا إنجاز ولا مجاهدة ولا تقدم ولا تنمية بدون معرفة، لذلك قال الرسول ﷺ: [اِقرأ وارتقِ] فسبيل النمو والارتقاء هو المعرفة..». [1]

ومن هنا فكل مناهج ومدارس التغيير التي جربتها أمة العرب والمسلمين منذ قرنين كانت نتائجها وخيمة، وعواقبها خطيرة، وتداعياتها كارثية، فأفرزت كمًا كبيرا من المشكلات والعقد والأمراض والآفات المركبة والفتن المستعصية التي يصعب حلها، أو التخلص من أسبابها ونتائجها وآثارها بسهولة.

وقد نَصَحَتْها نُخَبُها المستنيرة العديد من المرات، ودفعتها عبر خطاباتها ومشاريعها المتعددة لتختار الطرائق القددا، كمنهج من مناهج النهضة والتوثب الحضاري، ظنا منها أنها المنهج الأمثل للعروج بين الأمم الناهضة، عبر مختلف الاليات من انتخابات وؤصلاحات ديمقراطية وانقلابات واعتماد النهضة الاقتصادية، والاستعانة بالقوى الخارجية وغيرها.

فاختارتها وسعت لتطبيقها والعمل بها، وظلت تُجرّب وتختار، وُتعدّل وتُحلل، ثم تُجرّب وتختار.. طيلة عقود كثيرة من التخلف والتيه، لم تثمر سوى مزيد من الضياع المدمر للطاقات والوقت الدعوي والبنائي الفاعل، ومزيد من التخلف والتردي الخانق، مقابل نهضة وصعود الأمم الأخرى في آسيا لتصبح من القوى العالمية المؤثرة والمتحكمة في أشياء وأغذية وحياة البشرية قاطبة، بعد أن كانت حكرا على الأوربيين والأمريكان.

١- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر، عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ١٧.

وبعد كل هذا العرض، فقد تسنى لي الاطلاع العميق لمعرفة تلك المناهج التغييرية، والتمكن من مواطن القوة والضعف فيها، ورأيت أنها كلها تبعٌ لمنهج الإسلام الفريد في عالم التغيير، وهو التغيير بالمعرفة الصحيحة والسليمة. ولعله هو دافعي الأول والأخير من تأليف هذا الكتاب، الذي يأتي خارج نسق المؤلفات والكتب التي تزخر بها المكتبة العربية والإسلامية حول: الكِتَابِ والكُتَّابِ والقراءة والقرَّاءِ والنسخ وسوق الوراقين والطباعة والنشر الإلكتروني والفضائي.. حيث لم أقصد البتة من تأليفه سوى لفت نظر الغيورين والمحترقين من المؤمنين وأصحاب الضمائر الحية وأصحاب مشاريع التغيير والدعاة ومن سار على هداهم.. ليتنبهوا حيال هذا الأساس المهم والضروري واللازم في بناء مشروع التغيير الحضاري الصحيح.

فإذا لم يتنبه القائمون على عمليات التغيير إلى أهمية القراءة والمعرفة كأس ومكون قاعدي في إحداث التغيير الحقيقي في الفرد والجماعة، المُزمع اعتبارهما خلية التأسيس الأولى، ولبنة التكوين وخميرة التغيير الحقيقية في مشروع النهضة، فإن سائر الجهود الدعوية والتنويرية المبذولة خارج هذا الإطار تعكس الكثير من الدلالات، لعل أقلها فداحة وَسْمُ تلك الإرادات والقيادات الدعوية والدينية والتغييرية بالسطحية والسذاجة والطوباوية الحالمة، بل الابتعاد المتعمد أو العفوي عن أبجديات منهج التغيير الذي قدمه صاحب الشريعة السمحاء محمد ﷺ. إن لم يكن فوق ذلك -وهو الأخطر- وَسْمُ المشروع التغييري بالفشل الذريع والمبكر، أو السباحة خارج أطر ومنطقيات الأشياء، والحراثة بعيدا عن مصارف وميادين التغيير السليمة، والعبث بفقه جبلة التكوين الإلهي لسائر الموجودات، وعدم إدراك سنن النهوض والسقوط واليقظة، والذهول عن فهم طينة الآدميات والكونيات.

وقد قسمته حسب الفصول التالية:

١ - **الفصل الأول**، تناولت فيه مدخلا تأسيسيا لمدارس ومناهج التغيير،

أردت من خلاله تبيين موقع هذا المنهج الرائد ضمن سائر مناهج التغيير الأخرى، ومميزاته وثماره ونتائجه الطيبة.

٢ - **الفصل الثاني**، وتناولت فيه الدراسة الميدانية التي قمت بها على طلاب كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، وشملت تسعمائة (٩٠٠) طالب وطالبة من قسم العلوم الإسلامية بجامعة الحاج لخضر بباتنة من المرحلة الصفية، ومن درجة الماستر، وقُدمت لهم استمارة علمية حول القراءة والمقروئية، وموانع القراءة، والتحديات التي تعوقهم عن القراءة، وكانت النتائج كارثية جدا، حيث لم يتعد عدد القراء من بين التسعمائة طالب وطالبة سوى بضعة أفراد.

٣ - **الفصل الثالث**، وتعرضت فيه لأثر الإعلام الجديد على مهارتي المطالعة والمقروئية، متناولا نتائج العديد من الدراسات الميدانية في هذا الشأن، ونتائج دراسة ميدانية أيضا قمت بها على طلاب قسم العلوم الإسلامية للعام الجامعي ٢٠٠٩-٢٠١٠م.

٤ - **الفصل الرابع**، وتناولت فيه منافع وفوائد القراءة الآنية والمستقبلية، ومكانتها في المنظومة الفكرية الإسلامية، حيث تتبعت فوائد ومنافع القراءة الآنية والمستقبلية على الأفراد والجماعات والمكاسب المحققة من ممارسة هذا الفعل الرسالي.

٥ - **الفصل الخامس الختامي**، وتعرضت فيه لتجربة جيلين مع طلب المعرفة والرحلة مع الكتاب، ولمميزات الكتاب الورقي والرقمي الإلكتروني، وفضائل كل منهما على فرائض القراءة والبحث العلمي والمعرفة، وعملية التغيير في حد ذاتها.

وقد تجنبت الحديث في هذا الكتاب عن ما تحدث عنه الفضلاء الأكابر من قبلي، ممن تناولوا كتاب العلم والمعلم والمتعلم وأدب الطلب، وصفات العالم والمتعلم والعلم، وما ورد فيه من الآثار والأخبار كحجة الإسلام

أبي حامد الغزالي ت ٥٠٥هـ والعلموي ت ٩٨١هـ وابن جماعة ت ٤٢٩هـ ك «رسالة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم »، ومحمد بن سحنون ت ٢٤٠هـ في «آداب المعلمين»، والقابسي ت ٤٠٣ هـ في «أحكام وأحوال المعلمين والمتعلمين».. وغيرهم.

❊ موقف الإسلام من القراءة:

وعلينا في انطلاقتنا التغييرية الشرعية المحمدية ونحن ندعو النخب لتبني هذا المشروع، أن نركز على الأسس الثلاثة التالية:

١ - أن نعتبر القراءة وطلب العلم فريضة شرعية على كل مسلم يحب ويريد التغيير.

٢ - أن نعتبر القراءة وطلب العلم عبادة لها أجرها العظيم في الدنيا والآخرة.

٣ - أن نعتبر القراءة وطلب العلم والمعرفة هي الفيصل الفاروق بين الإنسان المكرم وسائر الموجودات، فالذرة في الهواء، والحجر في الجبل، والشجر على سطح الأرض، والهوام والطير الذي يطير في السماء، والحيوان الذي يدب في باطن الأرض وعلى ظهرها، وسائر المخلوقات والمجودات البرية والبحرية والجوية والمجهرية، تؤدي دورها في الحياة كما خطط لها خالقها وموجدها، وهي تسجد لربها وخالقها والمنعم عليها، وسجودها علامة معرفتها الحقيقية والصحيحة والسليمة لدورها ووظيفتها ورسالتها، لأنَّ من عرف ربه عرف نفسه، ومن سجد لربه فقد علم موقعه ومكانه ورسالته في الوجود، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (الحج: ١٨).

كذلك يجب علينا أن نبين أن عملية التغيير بالقراءة ليس لها أي آثار سلبية على المُغير والمُغيرين أنفسهم، بل على المتغيرين الحقيقيين أو المرتقبين أيضا، إن لم نقل: إن كل إفرازاتها وعطاءاتها على المُغيّر والمُتغير والتغيير إيجابية خيرية نفعية كلها. على العكس من إفـرازات ونتائج وآثـار بقية المناهج والآليات السابقة الذكر، التي تطفح بالآثار الضارة، والانعكاسات السلبية على المغير والمتغير، لعل أقلها: جلب العنت والمضايقة والمعاكسة والتضييق والخنق من الجهات المتسلطة المستكبرة، ودخول قوافل المنتفعين والمغرضين من الفاسدين والمفسدين.. وركوبهم الموجة سرا وجهرا لتحقيق مآربهم الخفية والمعلنة.

❋ إحياء الفروض الغائبة:

وما أود التنبيه إليه على أن أمتنا الإسلامية ما تخلفت وتردت وتقاعست عن ريـادة الـركب الحضاري اليـوم، إلاّ بسبب انتقاض عـرى الإسلام وفرائضه وواجباته عروة عروة، كما حدثنا بذلك الصادق المصدوق، حين قال عليه الصلاة والسلام: [لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة، يكون أولها الخلافة، وآخرها الصلاة] (أخرجه أبو داود وابن ماجة والترمذي والنسائي) أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وقد كانت فريضة القراءة من أعتى وأوجب عرى الإسلام لنصف قرن خلا، والتي جاء دورها اليوم لتنتقض وتتلاشى من بين أيدي جماهير الأمة ونخبها، بعد أن انتقضت العرى الكبرى والمهمة فيها، كعروة الجهاد في سبيل الله، وعروة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعروة الكد والجد والعمل، وعروة التخطيط والإعداد والبناء والشكر والذكر والحمد والفكر والتسبيح والاستغفار والتوبة..

وفي ختام هذه المقدمة الطويلة أدعو اللّه تعالى أن يرشدنا السبيل القويم، ويعلمنا كما علّم آدم، وُيفهّمنا كما فهّم سليمان، ويهدينا سبيل محمد ﷺ وصحبة الكرام رضوان اللّه تعالى عليهم أجمعين وأتباعه وأصحابه وتابعيه، ومن سار بهديهم وهداهم إلى يوم الدين، إنه سميع قريب مجيب الدعاء..

واللّه من وراء القصد.. ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم..



الفصل الأول

مدخل تأسيسي حول التغيير ومناهجه

من المقرر بداهة في بداية دراستنا هذه أن نؤسس منهجيا وعلميا لمفاهيم ومصطلحات الدراسة، من الناحيتين: اللغوية والاصطلاحية، واعتماد مقاربة اصطلاحية لغوية، ومفهوم اصطلاحي إجرائي يستصحب الدراسة كلها، وفي مقدمتها مصطلحي: «التغيير» و«المنهج»، فما التغيير والمنهج لغة؟ وما التغيير والمنهج في الاصطلاح ؟.

*** التغيير لغة واصطلاحا:**

تشير مادة (غَ. يَ. رَ) أو (غَ. يَّ. رَ) بتشديد الياء [1] من الاسم (التَّغيُّرُ)، أي: (تَبدَّلَ، َتحَوَّلَ)، وفي التنزيل: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (الأنفال: ٥٣)، قال ثعلب معناه: (حتى يبدلوا ما أمرهم الله به). [2]

ومن خلال هذه المقاربة اللغوية نتبين أن التغيير هو: التحول والتبدل من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن شأن إلى شأن، وفق قواعد ومنطلقات وأدبيات وخطط ووسائل وأهداف ومدة زمنية معينة.

وتغييرنا الذي ننشده عبر ممارسة فعل القراءة المكرم إنما هو: تغيير في بنية الفرد العقلية والوجدانية والسلوكية والإنجازية، وهو الذي يعتبره الباحث «أمين نعمان الصلاحي» وسيلة القرآن الأولى والأساسية، انطلاقا من القاعدة القرآنية الذهبية في إصلاح الفرد والمجتمع ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد:١١)، فـ «القرآن لا يقتصر دوره على الإرشاد والتعريف فقط، ولكن يمتد دوره إلى الصياغة وإعادة التشكيل، والفرق بين الأمرين كبير، فكم من التوجيهات

١- انظر: المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ٣، ص ٤٦١، بتصرف.

٢- انظر: المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ٤٦١، بتصرف.

والإرشادات التي قد يسمعها الإنسان دون أن يكون لها أدنى تأثير في سلوكه، أما القرآن فهو بأسلوبه المعجز المتفرد يعيد صياغة شخصية الإنسان فكرا ومشاعر وسلوكا، ليجعل منه بحق خليفة في الأرض.»[١].

والآيات القرآنية الكريمة تترى في مجال العلم والمعرفة والقراءة وطلب الحقيقة، والإشادة بالعملية التعليمية والتربوية، حتى فاقت آيات المعرفة ومشتقاتها ألفي آية، وفضيلة الإسلام الكبرى أنه «يفتح للمسلمين أبواب المعرفة، ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن، وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم. وليست فضيلته الكبرى أن يقعدهم عن الطلب، وينهاهم عن التوسع في البحث والنظر، لأنهم يعتقدون أنهم حاصلون على جميع العلوم». [٢]

والأمر نفسه السنة والسيرة النبوية المطهرة القولية والعملية والتقريرية من ناحية القراءة والمطالعة والتفكر والنظر، وطلب المعرفة، فالأحاديث النبوية الشريفة تزخر في هذا المجال المعرفي، وتحفل بسائر أركان العملية التعليمية والتربوية والتأطيرية والتكوينية. [٣]

١- عباس محمود العقاد، الفلسفة اقرآنية، مكتبة رحاب، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص ١٣.

٢- أمين نعمان الصلاحي، من وسائل القرآن في إصلاح المجتمع، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٢٧، رمضان ١٤٢٩هـ، السنة الثامنة والعشرون، ص ٥٧.

٣- انظر على سبيل المثال سائر التصانيف والمؤلفات في هذا المجال، وغيرها الكثير: ١ - أبو الحسن علي بن محمد القابسي القيرواني، أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق: الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م. ٢ - محمد بن سحنون القيرواني، آداب المعلمين، تحقيق: الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة، الطبة الثانية، ١٩٧٥م. ٣ - بدر الدين محمد بن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الضياء للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.٤ - أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.٥ - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ١,٦ - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج ١,٧- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

* **المنهج لغة:**

أما المنهج من الناحية اللغوية فقد تشير مادة (نَ. هـَ. جَ)[1] في معجم «تاج العروس من جواهر القاموس «إلى المعاني والمترادفات التالية: (سَلَكَ، أَخَذَ، سارَ، اعتمد)، ويقال: (نَهَجَ زيد الطريق)، أي: سلكه وأخذه واعتمده وسار وشرع فيه، و يقال: (استنهج زيد الطريق)، أي: (صار له نَهْجًا وطريقا واضحا وبيّنا وظاهرا)، و(النَهْجُ) هو: الطريق الواضح، و(المِنْهَاجُ) كالمصْباح، هو: (الطريق الواضح والبيّن والمعلوم)، وفي قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، أي: (لكل منكم جعلنا له الطريق البيّن الواضح).

ومن خلال هذه المقاربة اللغوية، نتبين أن المنهج هو السبيل والطريق الموصل لهدف ما، ويخرج من دلالته اللفظية الشيئية المادية ليدل على الأمور المعنوية والعقلية والروحية والوجدانية أيضا، ويُقصد به هنا: الخطط، أو المبادىء، أو المشاريع، أو الرؤى والتوجهات ذات البعد العقدي أو الفلسفي أو الفكري أو الإصلاحي أو التنظيمي أو السياسي والاقتصادي والاجتماعي.. في سائر مجالات الحياة.

* **المنهج اصطلاحا:**

والمنهج من الناحية الاصطلاحية هو: الطريقة التي يتبعها العقل الإنساني في دراسته لموضوع ما، من أجل التوصل إلى قانون عام، أو مذهب جامع، أو فن في ترتيب الأفكار ترتيبا دقيقا، بحيث يؤدي إلى كشف حقيقة مجهولة، أو البرهنة على صحة حقيقة معلومة[2].

١- المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ٢، ص ١٠٩، بتصرف.

٢- توفيق الطويل، أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م، ص ١٤١، نقلا عن: تركي رابح، مناهج البحث في علوم التربية وعلم النفس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص ١٥.

كما يُطلق مصطلح «المنهج» على: الدين، أو النِحلةِ أو الشِرعَةِ، أو على المشروع السياسي أو الفكري أو التربوي أو الإصلاحي..

فالمنهج جملة أو مجموعة منسجمة ومقننة اجتماعيا أو دينيا أو تنظيميا من القيم والمبادىء والضوابط والآليات والأهداف والوسائل التي يمكن من خلالها الوصول إلى النتائج المسطرة والمرجوة.

*** المنطلق والإشكال حول سؤال النهضة:**

وقد شغل سؤال النهضة والخروج من ربقة التخلف بال الكثير من الدارسين والباحثين والمفكرين منذ قرون، وهو اليوم يأخذُ بعدا استراتيجيا ومركزيا عند إنسان الحياة المعاصرة، كما يحتل لدى النخب المسلمة موقعا مهما، إذ الإجابة الصحيحة عليه هي - حسب اعتقادها - التي ستسوقها للخروج من مأزق التخلف وتبعاته، لأن «هاجس الإصلاح كان ولا يزال هم الإنسان ومؤرقه الدائب، ولقد سلك الإنسان تاريخيا صوب الإصلاح طرائق قددا، ولعل مشاريع الإصلاح أكثر من أن تحصى وإن باءت جميعها بالفشل من استنقاد الإنسان، واسترداد إنسانيته، وتحقيق كرامته، وتوفير اختياره، فمن المذاهب القومية إلى المبادىء الماركسية والاشتراكية، إلى التوهم أن أس البلاء في الرأسمالية وامتلاك وسائل الإنتاج، إلى الثورة وإيقاد الصراع الطبقي، إلى مذاهب الحرية الاقتصادية والتجارة الحرة، إلى استيراد الخطط والبرامج التربوية والتنموية، هذا عدا عن المذاهب الفلسفية الكثيرة، التي انتهت عند حدود المعارف الباردة، التي عجزت أن تغير سلوك أصحابها بله الآخرين.»[1].

وظل هذا الإنسان طيلة قرون وهو يحاول إثارة سؤاله النهضوي وتمريره في الواقع للإجابة عليه، وسرعان ما يتبدى له حاجته لإعادة صياغته،

١- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: أمين نعمان الصلاحي، من وسائل القرآن في إصلاح المجتمع، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٢٧، رمضان ١٤٢٩هـ، السنة الثامنة والعشرون، ص ٢٢.

وركوب وسائل الحياة الواقعية لإعادة تجريبه واختباره، حتى استطاع بعد سلسلة من الإخفافات والتجارب الواقعية صياغة سؤال النهضة ممثلا في الفرضيات التالية: [لماذا نحاول النهوض؟ وكيف ننهض؟ ومتى ننهض؟ وبمَ ننهض؟ ومع من ننهض؟ وبأي منهج ننهض؟]، والذي يتشعب - السؤال - بدوره عبر روافد معرفية وفكرية عديدة، وعبر غيرها من الحقول والروافد المعرفية والمنهجية المجاورة الأخرى لهذا السؤال، حتى صار إنسان الحضارة المعاصرة يعتقد جازما أن ما سيقدم عليه اجتماعيا وواقعيا هو عين المخرج الحقيقي من كوابيس التخلف والهيمنة والسيطرة الرازح تحتها، ولكنه سرعان ما يصطدم مجددا بتحديات صياغة السؤال وعقبات الواقع، فتتحطم أحلامه التغييرية على صخورها المدمرة، فيُسائل نفسه من جديد - بعد جسيم التضحيات - عن الأخطاء التي اقترفها ليتحطم مشروعه التغييري وينهار أمام مرأى منه، و لذلك، فقد لا نستغرب قول بعض الغيورين: «إن العمل الإسلامي المعاصر قضى ما يقارب القرن من الزمان وهو يراوح مكانه، ويكرر أخطاءه، ولا يفيد من تجربته الذاتية، ولا يشعر بالمسؤولية التقصيرية، وتغطيةً للفشل يؤثر الهروب إلى ساحة النوايا، التي يصعب ضبطها وكشفها وقياسها ومعايرتها، والتي الله أعلم بها، والتي قد تكون في بعض الأحيان عمياء غير مبصرة لطريقها وغير مدركة لأبعاد ونتائج فعلها..» [1]، أو يتبين له حينها أنه اقتفى أثر مشروع من المشروعات التي جربتها البشرية من قبله دون تمحيص وتدقيق وتحليل ونقد كاف، فيعاود القراءة والبحث والتنقيب ليكتشف آلية ومنفذا آخر نحو التغيير، ولكنه يجد نفسه مجددا في دوامة التجارب الفاشلة، ويعلم أن الكثير من الدارسين قد سبقوا لعرض جدول واضح بمدارس

١- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: فؤاد عبد الرحمن البنا، العروج الحضاري بين مالك بن نبي وفتح الله جولن، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٥، جمادى الأولى ١٤٣٤هـ، ص ١١.

وآليات التغيير التي تنتظم المدارس والآليات والمنافذ التالية:[1]

١ - آلية الانتخابات الديمقراطية النزيهة أو الصورية.

٢ - آلية تكوين الأحزاب والجمعيات ومنظمات المجتمع المدني والقوى الضاغطة.

٣ - آلية الإصلاحات الديمقراطية والتغييرية وفق أدبيات العقد الاجتماعي.

٤ - آلية الانقلابات والثورات والمظاهرات والعصيان المدني.

٥ - آلية اللوبيات والجماعات والنقابات الضاغطة.

٦ - آلية النهضة الاقتصادية وترقيع وتنمية البنية المادية.

٧ - آلية رفع نسبة الحذر والوعي واليقظة المحلي الذاتي والتوجس من السلطة.

٨ - آلية التسرب السري لدواليب صناعة القرار، وتشكيل طوابير خلفية تلتف على الأنظمة الفاسدة والمفسدة.

٩ - آلية الاستعانة بالحلفاء من القوى الخارجية.

ويظل يتساءل ويتساءل عن مشروع وآلية ومنفذ يحقق به نجاحه، فتخفى وتتوارى عليه - وعلى الكثير من المشتغلين بعمليات التغيير والنهضة - آلية العمل التغييري النبوي التي مارسها أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام وعلى رأسهم خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام،

١- انظر: أحمد عيساوي، تيارات وقضايا فكرية معاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، ص ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٨.. تناولت مدارس ومناهج ورواد التجديد والتغيير والإصلاح والتنوير.. وسائر مدارسهم التغريبية والتقليدية والاستغرابية والاستشراقية والقومية والاشتراكية، وأحمد عيساوي، البعد الزمني وأثره على الدورة الحضارية، مجلة البلاغ، الكويت، عدد ٢٠٠١، الأحد ٠٤/شعبان/١٤٣٣هـ ٢٤/٠٦/٢٠١٢م، الحلقة الأولى. والحلقة الثانية، عدد ٢٠٠٢، الأحد ١١/شعبان/١٤٣٣هـ ٠١/٠٧/٢٠١٢م.

بين مجموع تلك المدارس والآليات والمنافذ، لاعتبارات إهمال واستبعاد المنهج التغييري النبوي الشريف من مشاريع التغيير، على اعتبار أنها خاصة بالأنبياء أنفسهم، وعلامة بارزة في منهاجهم فقط، لا يمكن تبنيه والإيمان به كوسيلة من وسائل التغيير الناجحة والناجعة وغير المكلفة، والمضمونة النتائج أيضا.

*** موقع مدرسة التغيير بالقراءة بين مدارس التغيير:**

وبعد هذا الاستعراض المختصر لمدارس ومناهج التغيير، نود أن نقدم موقع مدرسة ومنهج التغيير بالقراءة، الذي هو منهج الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، حيث يتلخص منهاجهم عليهم الصلاة والسلام في القراءة وتقديم المعرفة الصحيحة بدل المعرفة الخاطئة والفاسدة، على حد قول الفاروق عمر ﷺ عندما سئل عن فعله ﷺ معهم، فقال: «كان يفرغنا من الجاهلية ويملؤنا بالإسلام». [1]

وهو فعله عليه الصلاة والسلام عندما نزل عليه الوحي فالتقى الصديق أبا بكر ﷺ، فقال له فيما يرويه يونس عن ابن إسحاق: «.. ثم إن أبا بكر الصديق لقي رسول الله ﷺ فقال: «أحق ما تقول قريش يامحمد ؟ من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا ؟ «فقال رسول الله ﷺ: «بلى، إني رسول الله ونبيّه، بعثني لأبلغ رسالته وأدعوك إلى الله بالحق، فو الله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره والموالاة على طاعته..»، فقرأ عليه القرآن، فأسلم وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد وأقر بحق الإسلام، ورجع أبو بكر ﷺ وهو مؤمن مصدق [2].

١- الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: [لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب] (أخرجه الحاكم). انظر: موفق سالم نوري، الأخلاق والسياسة قراءة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٤٨، ربيع الأول ١٤٣٣ هـ، السنة الثانية والثلاثون.

٢- إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ج ١، ص ٤٣٢ و ٤٣٣.

فرسول الله ﷺ قدّم بالمنظور التغييري معرفة صحيحة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وخلع عنه معرفة خاطئة وفاسدة، وأقنعه بصدقها وبعدالتها وبفائدتها، فغيره بالمعرفة نحو الأسلم والأصلح، وصنع منه رجلا متميزا في مشروع الدعوة الإسلامية الرائد.

وانطلاقا من فعله ﷺ مع سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه [1]، يمكننا أن نشارك نظر الدارسين في مجال البناء الحضاري إلى عملية التغيير على أنها: محصلة تفاعل القوى العاقلة، وتناغم الرؤى الحية لدى الجماعة أو العصبة المؤثرة في مرحلة زمكانية وكيانية وإمكانية معينة فاعلة، القصد من ورائها إحداث تصور تغييري حالي وواقعي جديد وفعال ومتحرك ومنتج لجماعة أو عصبة ما، ضمن نسق أمة أو شعب أو مجتمع يعاني من تعثرات وتحديات وأزمات تعوق مسيرته بين مجموع الأمم السوية والناهضة في المجتمع البشري.

فالتغيير إذن هو: منتوج علمي تجربي، وعطاء معرفي تراكمي، وإنتاج فكري ثري ومتجدد، وتجذّر ثقافي أصيل ومعاصر، وأساس عقدي وإيديولوجي سوي، وصدى روحي حيوي فياض، ودفق وجداني بناء، تمظهر في عالم الشهود الحضاري في كليات نظرية وتصورية معرفية ووجدانية، ومن خلال أبجديات مبدئية تطبيقية إجرائية في أنساق مشروع نهضوي

١- ولم يخص رسول الله ﷺ الرجال بالدعوة والتعليم فقط، بل كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ خص النساء بالتعليم نزولا عند رغبتهن في ذلك فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يارسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله، فقال: «اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا»، فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله، ثم قال: «ما منكن امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثة إلاّ كان لها حجابا من النار»، فقالت امرأة منهن يارسول الله: أو اثنين، قال: فأعدتها مرتين، ثم قال: «واثنين واثنين واثنين». أخرجه الإمام البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله، ابن حجر: فتح الباري، ٢٨/٥٦-٥٧. نقلا عن:- حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ١٠٦.

شامل ومتكامل، يحمل فلسفة ورؤية صانعيه ومجسديه في الواقع[1].

وتتوزع رؤى المتخصصين والدارسين الحضاريين حيال مشاريع النهضة والتغيير إلى ثلاث اتجاهات رئيسة، تراكمت عبر مجموع القراءات الحضارية الإنسانية لفقه التغيير السنني والتمكين الواقعي، وتنطلق كلها من اعتبار أرضية التغيير منطلقها عبر سؤال النهضة المصيري، الذي يجب أن تعرضه النخبة المتميزة عقليا ووجدانيا، والمتمكنة اقتداريا وميدانيا، والقادرة على صياغة سؤالها النهضوي بطريقة فلسفية ناجحة وبناءة، بعيدة كل البعد عن الصياغة الخطابية أو الجدلية أو البيانية التي تتسامى فيها تجليات الصوفية الحالمة أو الطوباوية المنفلتة، ضامنة لسؤالها صياغة معرفية دقيقة ومنهجية سليمة من جهة، ومتمكنة من خلاله استجماع أدواتها المعرفية والعلمية والمنهجية والاقتدارية والتمكنية في الرؤية والتوسم الآني والمستقبلي الواقعي من جهة ثانية، القابل للترجمة في واقع الحياة والناس، والجدير بالإجابة على كل انشغالاتهم وتطلعاتهم الكريمة والمشروعة.

والمتعمق في مدارس ومناهج التغيير عبر التاريخ الإنساني يكتشف أن رؤاهم التغييرية - حسب قراءاتي - تتوزع المشهد الحضاري وفق تصور الدرس النهضوي التالي[2]:

١ - مدرسة التغيير الفوقي في قمة الهرم، حيث النخبة الحاكمة والمديرة والمفكرة.

٢ - مدرسة التغيير القاعدي في أسفل الهرم، حيث القاعدة الجماهيرية المسحوقة، المُشكلة للسواد الأعظم.

١- انظر: مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، ص ٩١.

٢- انظر: أحمد عيساوي، تيارات وقضايا فكرية معاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، ص ١٣٥.. ١٤٢.

٣ - مدرسة التغيير في منطقة الوسط عبر التجيير والأكسدة بين مكونات الهرم الفوقية والقاعدية، حيث النخبة المثقفة السوية والمهمومة بالفعل الثقافي والتغييري الحضاري.

وعليه، تصير لكل مدرسة رؤية لها تصوراتها وتجاربها حيال العملية التغييرية، حيال سؤال النهضة المصيري والاستراتيجي، من حيث صياغته بما يتفق ونجاحه وتأمينه لمتطلبات الواقع الزمكاني الكياني والإمكاني. وبهذا البسط المنهجي الدقيق تصير - بالتأكيد - لكل رؤية محصلتها ونتائجها الحسابية أثناء ممارسة الفعل التغييري النهضوي في الواقع.

وتصير لها - حسب ثقل مشروعها المعرفي والمنهجي والواقعي - مساحات وحظوظ مربحة من مجالات التحرك وفضاءات المناورة وبؤر التأييد والتبني الفئوي الهادف إلى ترسيخ أبجديات مشروعها التغييري لدى الفئة المعنية والمتحمسة والمهمومة بمشروعها التغييري. ويكون تبعا لذلك - لدى حاملي السؤال والمشروع - القدرة على إجراء الكثير من العمليات الحسابية الدقيقة مع كل جهة من جهات الهرم الكياني المعني بعملية التغيير الواقعية. كما يصبح نجاح المشروع أو فشله أو تعثره أو تباطؤه مرتبطا بمدى دراسة ومعرفة مجريات المتحمسين لتبنيه في أي جهة من جهات الهرم.[١]

وعليه يمكننا أن نقرر أن لكل جهة من جهات الهرم مميزاتها وإيجابياتها وسلبياتها حيال أي سؤال نهضوي أو أي مشروع تغييري حضاري. فالتغيير الفوقي في قمة الهرم، حيث النخبة الحاكمة والمديرة والمفكرة له عوائده السريعة والإيجابية والمفيدة - إن نجح - على السؤال والمشروع معا، ولكنه بمقابل ذلك له تداعياته السلبية ومخاطره غير المتوقعة البتة، ولربما أدى إلى نتائج عكسية غير محمودة الخاتمة، كما تبين ذلك من خلال التجارب

١- انظر: عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٢، ذو القعدة ١٤٣٣هـ، ص ١٣٢.. ١٣٥.. ١٣٩.. ١٤٩...

التغييرية، وذلك لاعتبارات كثيرة:

١ - كونه اخترق النواميس الضابطة، وتجاوز السنن والقوانين الحتمية الواجب توفرها في مقارعة الخصوم، ومدافعة الفساد والمفسدين.

٢ - كونه تعجل في حرق المراحل، وتنازل عن فقه الأولويات والمرحليات الأساسية.

٣ - كونه توجه للمساحة الضيقة من هرم الكيان، التي ستعجز - لا محالة يوما ما - عن تحقيق أبجديات المشروع واقعيا.

٤ - كونه غير مأمون النتائج آنيا ومستقبليا.

٥ - كونه شكلاً من أشكال صراع العصبات والقوى ضمن نسق ولايات الغلبة والغصب والقهر على حسب رأي الإمام الجويني في كتابه القيم «غياث الأمم في التياث الظلم».

أما التغيير القاعدي في أسفل الهرم، حيث القاعدة الجماهيرية العريضة والمسحوقة - السواد الأعظم -، المتحمسة والوقود الحقيقي لأي مشروع نهضوي أو تغييري، والغائبة عن الفهم العميق لأبجديات السؤال والمشروع، فلها أيضا - في حال مشاركتها وتحمسها الكياني والاقتداري - مخاطرها وتداعياتها على السؤال والمشروع معا، لاعتبارات لعل أوجهها:

١ - انفلاتها وتمردها وعدم انضباطها بأبجديات المشروع.

٢ - غياب الوعي الفاعل للمقاصد النبيلة للسؤال وللمشروع معا.

٣ - خروجها عن الدوائر والحدود المرسومة لها بفعل الهياج الثوري، في العديد من المواقف، والسعار التغييري الذي ينتابها أثناء تحمسها الزائد لإنجاح المشروع، وكسب رضى النخبة المديرة له.

٤ - الإفراط الزائد في تغليب الحالات والمواقف المترتبة عن الحقبة

السوداء السالفة، على أبجديات المشروع التغييري السوي.

٥ - ضآلة تطلعاتها العقلانية بمقابل الحماسة المفرطة.

ومن هنا تكون عملية إنزال السؤال والمشروع إلى القاعدة - دون مراعاة النواميس وفقه السنن - محفوفا بالكثير من المخاطر والتداعيات والانزلاقات، المؤثرة سلبا على نجاح المشروع.

أما التغيير في منطقة الوسط، حيث صفوة النخبة القاعدية، وصفوة النخبة الهرمية الفوقية، عبر التجيير والأكسدة بين مكونات الهرم الفوقية والقاعدية، وحيث النخبة المثقفة السوية والمهمومة بالفعل الثقافي والتغييري الحضاري تكون التقديرات والحسابات فيها أكثر أمنا للقائمين بالعملية التغييرية على السؤال والمشروع، شريطة استيفائه متطلبات التشبع السوي على المستوى الزمان والواقع والإمكان بين طرفي الهرم الفوقي والقاعدي.

ولهذا المنحى التغييري أيضا عثراته ومزالقه، بالرغم من كونه من أفضل مناهج التغيير الآني التي أفرزتها أحداث التاريخ البشري، ولكونه يمثل نقطة التقاء بين طرفي الهرم المختلفين والمتنافرين، ولكون النخبة القائمة عليه معرضة لعمليات الاختراق والتعويق والابتزاز والتدمير الفوقي، بهدف ثنيها وتحويلها عن وظيفتها وهمها التغييري من جهة، ولكونها معرضة أيضا من بنية الهرم القاعدية لسلسة من العمليات غير المأمونة وغير المتوقعة، ما يجعلها في وجه الإعصار الذي سيعصف بنواياها وجهودها السوية والنبيلة في عملية التغيير من جهة ثانية.

فتقع النخبة التغييرية المثقفة في مجال مربك، يجعلها كما يقول المثل العربي في «حيص بيص» حيال تجاذبات طرفي الهرم المتناقضين.

وهنا يبدو لنا مشهد النخب المثقفة محزنا كوننا نفهم بعمق العراقيل الجمة التي تعرضت لها، بما لايتناسب مع نواياها أولا، ومكانتها ومواهبها

الاقتدارية ثانيا، وتمظهراتها الواقعية ثالثا، وأهدافها ومقاصدها التغييرية النبيلة حيال طرفي الهرم رابعا، وهو الأهم - بالنسبة لنا - في كل حراكها الحضاري.

شروط ومُؤسسات التغيير:

وقبل الشروع في سرد شروط التغيير السنني والمؤسسي الناجح، لا بد لنا أن نقرر أن التغيير الناجح له شروط واضحة ومؤسسات ضرورية قائمة، لابد من توافرها على المستويين النظري والعملي، الآني والمستقبلي، العقلي والوجداني، التقني والوسيلي..

وقد عملت الكثير من مدارس التغيير - خلال سني نضالها - على التنويه بها نظريا وعمليا، وعدته من شروط نجاح السؤال والمشروع الواقعي معا.

وهذه الشروط والآليات هي:

١ - ضرورة توفر نخبة واعية وسوية ومتميزة وقادرة ومدركة للمسألة على الصعيدين النظري والعملي، والتاريخي والواقعي الآني والمستقبلي، والتصوري والعملي، والممكن والطوباوي، والحقيقي والخيالي.

٢ - ضرورة توفر واقع معيش تتجمع فيه كل شروط ومتطابات التغيير، ويحتاج إلى ذلك السؤال فعليا، وإلى تلك العملية بشكل صحيح وفعلي وواقعي، لا تجنٍ فيه، ولا عليه.

٣ - وجود هرم كياني حاكم غير متوازن مع قاعدة هرم تعاني من التداعي القيمي، والخواء العقدي.

٤ - وضوح المشهد الحضاري القوي والمتميز لدى الآخر السوي، على المستوى العالمي والدولي المحلي والإقليمي المجاور سياسيا واقتصاديا وعلميا وماليا وإعلاميا.. بما يبعث روح الشك والتململ، ويثير الكثير من التساؤلات

الحساسة حيال التباين الشديد بين الكيانات الراشدة السوية وتلك الغائبة عن شروط النهوض الحضاري.

٥ - توفر سؤال ومشروع حقيقي واقعي، وحاجة الكيان إليه زمانا ومكاناوإمكانا.

٦ - مناخ عالمي موات للعملية في شقها الفلسفي الأيديولوجي النظري، ممثلا في بسط السؤال، وفي شقها الواقعي، ممثلا في وجود قاعدة متحمسة للدفاع عن السؤال، والاستماتة من أجل مشروع التغيير الكياني.

٧ - مؤسسات مفعلة للانتقال السلمي والهادئ: [الإدارة، القضاء، المؤسسة الأمنية، المجتمع المدني الحر والمستقل عن البناء الهرمي الفوقي].

٨ - وسائل وآليات مختلفة: [قوانين متنوعة: ١ - قانون تكوين الجمعيات والأحزاب، ٢ - قانون الإعلام، ٣ - قانون الانتخاب، ٤ - قانون المؤسسات الدستورية: مجلس شورى، برلمان، مؤسسات وهياكل دستورية ٥ - أنظمة: ملكية دستورية، ملكية برلمانية، جمهورية رئاسية، جمهورية برلمانية، ثورية عادلة..].

٩ - جهاز قضائي سوي ونظيف ومحايد وفعال، يضمن الرقابة الحقيقية والنزيهة على سائر العمليات التغييرية، ويساهم في الفصل المبدئي بين مكونات الهرم الثلاثة لصالح المرجعية المُحتكم إليها مسبقا، كالديمقراطية مثلا، أو غيرها، وذلك بحسب عقد المفاهمة بين أطياف الهرم الثلاثة.

١٠- مؤسسات دولية سوية ومحايدة، وذات توجه حضاري ونهضوي أكيد، بهدف إنجاح مسار التغيير السلمي والهادئ لدى الأمم المضطهدة والمحرومة، والتمهيد الطبيعي والتلقائي والسلمي الحضاري لانتقال مقاليد السلطة من قمة الهرم باتجاه طرفيه الآخرين، واستمرار الأمة حضاريا.

وعليه، فإن توفرت هاته الشروط والآليات نظريا وعمليا - ويسعى المجتمع الدولي اليوم عبر مؤسساته الدولية توفيرها ولو من الناحية الشكلية - أمكن صياغة مشروع تغييري هادىء وسوي وسلمي في أي كيان في العالم، ولكن عبر توفير جملة من الضوابط.

ضوابط التغيير:

ولإنجاح عملية التغيير نظريا وواقعيا، لا بد من مراعاة جملة من الضوابط الأساسية في العملية، لعل أهمها:

١ - وضوح رؤية النخبة، ونبل مقاصدها، على المستويين النظري والعملي، الآني والمستقبلي.

٢ - سلمية وقانونية وسائل العملية التغييرية.

٣ - توفر إدارة نزيهة وبعيدة عن كل أشكال الفساد، تنأى بسمعتها من كل أشكال التزوير والتزييف.

٤ - توفر أجهزة قضائية ورقابية محايدة لتأهيل أحد أطراف الهرم لتولي الإجابة الواقعية عن السؤال النهضوي من جهة، وتمظهراته العملية الواقعية والحياتية من جهة ثانية.

٥ - وجود نخب وقاعدة مُضحية وباذلة، راغبة في التغيير السلمي، تُحسن القراءة والفهم والبذل، ولا تنطلق من ردود الأفعال، لأنه «.. من أهم أسباب الخلل أيضا القراءة المبتسرة والقاصرة والانتقائية أحيانا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وغياب منهج الاقتداء، ومعرفة الموقع المناسب لعصرنا وواقعنا من مسيرة السيرة، التي استوعبت أصول الحياة بكل قضاياها ومشكلاتها، وهذا لا يقل سوءا وخطورة عن تنزيل الآيات على غير محالها، وعدم استيفاء توفر شروط التنزيل في المحل. وقد يعود ذلك لتحكم الانفعال وممارسة

رد الفعل، وثمرة للضغوط المحيطة بنا، وإيقاع الظلم والاستبداد ممن بيده القوة، الأمر الذي يجعلنا لا نبصر إلاّ طريقا واحدا هو طريق المواجهة، والتحاكم إلى القوة، وعسكرة العقل والاجتهاد والتربية والسيرة، فتصبح آية واحدة هي آية السيف تنسخ أكثر من ثلث القرآن في التربية والدعوة والمعاملة والأخلاق والبر والرحمة والعفو والحب والعدل والإخوة ؟؟»[1].

احتمالات النجاح والفشل:

وضمن أنساق سنن ونواميس التدافع الحضاري، وعبر مؤسسات الضمان التغييري الحضاري السالف ذكرها، ووفق أدبيات التزاحم القيمي والدفاع الواقعي، والتثاقف الفكري والعقدي والإيديولوجي السوي والناجح واقعيا، تتبدى لنا النتائج جلية لعملية التغيير الحضاري. ويبقى السؤال الكبير: «إذا كنا نمتلك الخطاب الإلهي الصحيح والسليم والخالد والخاتم.. كما نمتلك البيان النبوي المعصوم لهذا الخطاب.. ونمتلك أيضا السيرة النبوية، التي تمثل الواقع التنزيلي والعملي والتطبيقي لهذا النص على واقع الحياة.. كما نمتلك التجربة التاريخية الحضارية الإنسانية من أنموذج تعامل البشر مع هذا الخطاب بعد توقف الوحي ووفاة الرسول ﷺ، ونمتلك أيضا العمق التاريخي لتجربة النبوة والتحديات الكبيرة المحرضة والمستفزة من الآخر الذي يستهدف الذات ويستدعي بشكل طبيعي وعفوي الاستجابة للتحدي واستنفار الطاقة والنهوض للمواجهة وحماية الذات من الإلغاء بكل أبعاده.. فما هي إشكالية النهوض إذن، التي تعددت حولها الإجابات والأحزاب والجماعات ولمّا يتحقق النهوض ؟؟».[2]

١- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٢، ذو القعدة ١٤٣٣هـ، ص ٢٣ و ٢٤.

٢- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، ص ١٧.

فتنجح النخبة القائدة في سائر أو جُل عملياتها التغييرية، إذا أحسنت فهم أسس المشروع الإسلامي فهما سليما، ولم تعاودها علل التدين التي سبقت لسقوطنا الحضاري بالرغم من تحذير القرآن الكريم لنا في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ (البقرة: ٧٨)، وذلك عند ذهاب أوان العلم[١].

وقد تنجح النخبة القائدة إذا وجدت التأييد والمساندة الصادقة والمطلقة داخليا وخارجيا، ولم تدخل على خطها السوي والمشروع أسئلة ومشاريع وأهداف أخرى، لجهات خفية أو جلية أخرى، ممهدة - بشكل سوي - لقاعدة الهرم كل أشكال المشاركة الإيجابية والفاعلة، وكل أدبيات ووسائل وآليات المقارعة والمقاومة الجدية لتحقيق الشهود الحضاري المنشود.

ويبقى للسؤال وللمشروع محصلة النجاح والتزكية في الواقع محكومة بمقدار استجابتها لتطلعات القاعدة الهرمية ومتطلباتها وحاجاتها، التي علقت الآمال العراض عليها، لتدخل بعد فترة زمنية - حسب ابن خلدون - أيضا في مشكلة النجاعة والصلاحية للبقاء، وأحقية الدور والخلود البشري، أو التداول السنني، وذلك كي لا تكون السلطة والمال والنفوذ دولة بين الأقوياء النافذين فقط، وتكون القراءة حسبما ذهب إليه الشيخ «عمر عبيد حسنة» مقرونا بـ «.. أهمية إعادة قراءة قصة الحضارة الإنسانية في القرآن، والتأمل في دلالة قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧).. لكن رغم ذلك يبقى السؤال الكبير مستمرا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟»[٢].

١- انظر: مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، ص ١٧ و ١٨ و ١٩، بتصرف.

٢- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: عبد الله محمد الأمين، الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٣، المحرم ١٤٣٤ هـ، ص ٢٤.

ميزات منهج التغيير بالقراءة:

ولعله من المؤكد هنا الإشارة – من باب التبشير – إلى أن محصلة الرؤية الابتدائية لمشروع ومنهج التغيير بالقراءة، تشير إلى محفزات ومبشرات ومنشطات صلاحية هذا المنهج عن غيره وتميزه ونجاحه، حيث أظهرت القراءة الأولية ما يلي:

١ – يتميز مشروع التغيير بالقراءة بالنسبة للمغيَرين بـ: السكينة والهدوء والاتزان والوقار الرصين، وفتح الآفاق والمنافذ المغلقة.

٢ – يتميز بالنسبة للمشروع نفسه وللقائمين عليه بـ: العمق والتأسيس والثبات والفاعلية التأثيرية، حيث نقاء وتوازن عملية التواصل مع الطرف المنشود بالعملية.

٣ – يتميز بضمان ثمراته وعوائده ومنافعه ومكاسبه.

٤ – يتميز بقلة تكاليفه وأعبائه ومتطلباته وتبعاته.

٥ – يتميز بنوعية وأصالة وكفاءة ومواصفات المنخرطين فيه مغيرَين ومغيِرين على حد سواء، وذلك بكمال الوسيلة وسمو الغاية وارتقائها.

٦ – يتميز بعمق وتأسس وتجذّر أبعاده ومستوياته وخطاباته وآثاره.

٧ – يتميز بموقعه الممتاز والأرقى بين سائر المشاريع التغييرية الأخرى، من حيث مقاصده الأخلاقية الكبرى.

٨ – يتميز منهجه وفنياته وتقنياته ووسائله عن سائر مناهج وفنيات مدارس التغيير الأخرى.

٩ – يتميز بتجاوزه عقبات الانتماء الإيديولوجي والعصبي، وآليات الصدام العرقي والإثني والمذهبي، حيث هو فضاء يفتح قنوات التواصل بين العقول الراغبة في الكمال عبر طرق تحصيل المعرفة.

١٠- يتميز باقتصاره على توسيع وتعميق خطاب العقل والقوى المدركة وجوهر الإدراك، وتأصيل خطاب القلب والوجدان، في الإطار الزمكاني والكياني، دونما أن يتسبب بأي إكراهات أو إحراجات لسائر مناهج التغيير الأخرى، التي هي بحاجة ماسة إلى أبجدياته.

١١- يتميز بإيجابية آثاره الارتدادية على طرف العملية التغييرية، فأي عملية تغييرية لها ارتداداتها المختلفة، والقراءة ارتداداتها وتأثيراتها إدراكية، فالخوف والخشية كل الخشية من الأمي والجاهل، لا من المتعلم المثقف.

١٢- يتميز بيسر وسهولة وتلقائية وانخفاض تكاليفه، حيث تتم العملية التغييرية عبر الوسائل التغييرية التالية: [الكتاب، الصحيفة، المجلة، الدرس، الموعظة، المحاضرة، المناظرة، المحاورة، المناقشة، المثاقفة، المدارسة، المكاتبة، المخاطبة..].

١٣- يتميز بسلمية آلياته التدافعية ومدنيتها وحضارتها، حيث هي مجرد تدافع الحشود الهائلة من الأفكار: الحية والمُحيية والقاتلة والميتة والمُميتة والفارغة والبانية والهادمة والمهدمة والمفسدة والفاسدة والصالحة.. في تدافعات ومرافعات عالم الأفكار السامي الأفق. [1]

١٤- يتميز بكونه يُحي منهج الخالق ﷻ في عملية التغيير، ويُعيد عقل البشرية الغائب الذاهل عن منهج التغيير الأصيل والحقيقي، وهو التغيير بالمعرفة الحاصلة عن طريق آلية القراءة.

١٥- يتميز بتخليص المغيَرِينَ الذاتي من العقد النفسية، ويعمل على تنقيتهم من سائر الشوائب الوجدانية والشعورية المُعيقة لحسن سير عملية التغيير.

١- انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، ص ١٤٦...

وبعد أن تبين لنا التغيير ومناهجه ومدارسه، وترسمنا ثمار منهج التغيير بالقراءة نقدم دراسة ميدانية حول القراءة والمقروئية الغائبة من حياة القوى الحية في الأمة المسلمة.



الفصل الثاني

دراسة ميدانية
حول القراءة والمقروئية

في بداية هذا الفصل يستحسن إيراد التعريف اللغوي والاصطلاحي للقراءة والكتاب

*** القراءة لغة واصطلاحا:**

تشير مادة (قَ. رَ. أَ) [1] (قِرَاءَةَ) كـ (كِتَابَةً)، و (قُرْآنًا) كـ (عثمان) فهو: (قـارِىءٌ) ونقول: (قرأت الكتابة قراءة وقرآنا). و (قَرَأَ الشيء): جمعه وضمه، و (قَرَأْتُ الشيء): أي تلوته وتلفظت به.

و (قَرَأَةٌ) كـ (كَتَبَةٍ) في كاتب، و (قُرَّاءُ) كعُذال في عاذل وهما جمعان مكسران، و (قـارِئِينَ) جمع مذكر سالم، ويقال: (قـرأتُ الكتابةَ قراءةً وقرآناَ)، ومنه سُمي القرآن قرآناً لجمعه بين الكتابة والقراءة.

قال أبو إسحاق الزجاج في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، أي: جمعه وقراءته ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، أي قراءته. [2]

ومن خلال هذه المقاربة اللغوية نتبين أن القراءة فعل خاص يقوم به الإنسان القادر على فك الرموز الكتابية، والمؤهل والمُدَرَّبُ والمُعوَّدُ على هذا الفعل الحضاري المميز بالإنسان وحده، وهو الفعل الذي لا يستطيع أن يقوم به إلاّ الإنسان وحده دون سائر المخلوقات والموجودات المسخرة له، عدا عالمي الجن والملائكة الذين ثبت لهم القراءة والاستماع والفهم بالقرآن الكريم في سورة الجن وغيرها.. لأن الله سبحانه وتعالى اصطفاه وكرمه على سائر المخلوقات بنعمة العقل، ومن نعم العقل القراءة والكتابة والترميز، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

١- انظر: المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ١، ص ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣، بتصرف.

٢- انظر: المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣، بتصرف.

* الكتاب لغة واصطلاحا:

أما الكتاب لغة، فتشير مادة (كَ. تَ. بَ) (يَكْتُبُ) (كَتْباً) بالفتح والسكون، و (كِتَاباً) بالكسر على خلاف القياس، وقيل هو اسم كاللباس، وقيل أصله المصدر، ثم استعمل في المعاني الكثيرة الآتية: (كِتَابَةً) و (كِتْبَةً) بالكسر فيهما معا أي: (خَطَّهُ). [1]

و (اكْتَتَبَ) فلان (كِتَاباً)، أي: سأل أن يُكتب له. و (اكْتَتَبَهُ) الشيء، أي سأله أن يكتبه له، وفي التنزيل العزيز: ﴿ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: استكتبها مضعفا.

و (الكِتَابُ) ما يُكتب فيه. وفي الحديث قوله ﷺ: «من نظر إلى كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في النار»، وهو هنا محمول على الكتاب الذي فيه سر وأمانة يكره صاحبه أن يطلع عليه أحد، وقيل: هو عام في كل كتاب، و(الكِتَابُ) هو: (الدُّوَاةُ) يُكْتَبُ منها.

و(الكِتَابُ) التوراة، و(الكِتَابُ) القرآن، و(الكِتَابُ) (الإنجيل) و(الكِتَابُ) (الصحيفة) يكتب فيها.

و(الكِتَابُ) يُوضع موضع (الفَرْضِ) قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ و﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾: معناه فُرِضَ، و ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ﴾ أي: فرضنا.

و(الكِتَابُ) بمعنى الحكم، وفي الحديث قوله ﷺ: «لأقضين بينكما بكتاب الله» أي: بحكم الله الذي أنزل في كتابه وكتبه على عباده، وفي حديث بريرة: «من اشترط شرطا ليس في كتاب الله»، أي: ليس في حكمه، و(الكِتَابُ)، أي: (كتاب الله) هو: القضاء والقدر، و(الكِتَابُ) هو الأجل والموعد. قال النابغة الجعدي:

١- انظر: المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٤٤٤ و ٤٤٥.

يا بِنتَ عمي كِتَابُ اللهِ أَخْرَجَني   عَنْكمُ وهلْ أَمْنَعَنَ اللهَ ما فَعَلا.[1]

و(الكَاتِبُ) هو: العالم، في قوله تعالى: ﴿ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴾، وفي كتابه ﷺ: «قد بعثت إليكم كاتبا من أصحابي» أراد عالما، سُمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة، وكان الكاتب عندهم عزيزا وفيهم قليلا.

و(الكِتَابَةُ كـ (التكتيب) و (المُكْتِبُ): هو المعلم، وهو المكتب الذي يعلم الكتابة و(المُكَتِّبُ) هو: المعلم، و (الكُتَّابُ) جمعها (كَتَاتِيبُ) و (مَكَاتِيبُ)..[2].

ومن خلال هذه المقاربة اللغوية نتبين أن الكتابة هي: الخط والرسم والتدوين، والكتاب هو: «الشيء كالحجارة المنقوشة بالكتابة» أو «الصفحة أو الصفحات» الذي اجتمعت فيه الكتابة المؤتلفة حول موضوع أو غرض ما، وهو وسيلة التعلم والتعليم والتدوين والجمع، له خصوصياته ومميزاته وفنياته، تمهر في صناعته أهل الحرفة من النساخين في العهود السالفة، وهو اليوم صناعة متطورة جدا.

*** المقروئية والواقع الكارثي:**

وبعد أن تبين لنا مصطلح القراءة والكتابة نحب أن نتناول حال القراءة والمقروئية في الأوساط العربية المعنية بممارسة هذا الفعل المكرم، وهنا يجب علينا أن نعترف أولا - بكل صدق وواقعية - كباحثين ومهتمين بعمليات الحصاد المعرفي والعلمي والمنهجي الاجتماعي في العالم العربي أن ممارسة فعل القراءة المقدس [إقرأ]، وإحياء عمليات التحصيل المعرفي عبر آليتي المطالعة والمقروئية في بلاد العرب والمسلمين عامة، بات غائبا، أو مُغيّبا، بمستوى وشكلٍ وواقعٍ مزرٍ لافت للنظر التنويري، ومثيرٍ للقلق والفزع الحضاري، وباعثٍ على الخوف المرضي، كونه غاب عن مجموع نشاطات

١- انظر: المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٤٤٤ و ٤٤٥.

٢- انظر: المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١، ص ٤٤٤ و ٤٤٥.

وفاعليات القوى العاقلة والمفكرة من الجمهور الجامعي المثقف، وحاضرٍ بشكل محتشم لدى النخب العليا، ولاسيما بعد الفورة الرقمية والمعرفية الهائلة، وصعود وسيطرة وسائل الموجة الإعلامية والاتصالية التكنولوجية الخامسة على ساحة التواصل العالمي المعرفي والاجتماعي والاقتصادي والتقني..

وفي هذا الصدد، تشير تقارير وإحصائيات منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونيسكو» إلى أن متوسط قراءة الفرد في المنطقة العربية بلغ [٠٦] ستة دقائق في السنة، أي ما معدله ربع صفحة، مقابل [١٢٠٠٠] اثنى عشر ألف دقيقة في السنة للغرب، أي ما يقارب أحد عشر [١١] كتابا للفرد الأمريكي و [٧] سبعة كتب للبريطاني. [١]

كما يجب علينا أن نعترف أيضا - وبكل قلق وأسف - أننا سجلنا على ساحة القراءة وفضاء المقروئية والمطالعة غياب فئات القراء العاديين اليوميين عموما، وتضاءل شريحة المولعين والمهوسين بالقراءة خصوصا، حتى وصل عدد القراء اليوميين اليوم إلى نسبة ١٧٪ من مجموع شريحة القراء العاديين اليوميين، أما فئة المسكونين بهاجس القراءة فقد انكمشت نسبتهم حتى بين النخب الجامعية الباحثة، واقتصرت على فئة ضيقة ومحدودة لها علاقات مباشرة بالمراكز المتخصصة في البحث والدراسات والمتابعة والاستكشاف.

كما تشير الباحثة اللبنانية (رنه جوني) في بحث لها منشور في مجلة البيت العربي [٢] عن انخفاض نسبة المقروئية لدى فئة الشباب إلى أن نسبة المطالعة في لبنان باتت تقدر بـ ٦ ٪ من مجمل طلاب المدارس والجامعات،

١- انظر: محمد سيد ريان، القراءة في العالم العربي، ملحق مجلة البيت العربي، العدد ٦، ماي ٢٠١٢م، ص ٥.

٢- انظر: رنه جوني، الشباب انقراض الثقافة العميقة، مجلة البيت العربي، عدد ١٨، مايو ٢٠١٣م، ص ١٠ و ١١ و ١٢، بتصرف.

وهي نسبة متدنية جدا، وبحسب دراستها فقد «.. منيت الثقافة العامة الشبابية تحديدا في الأعوام الأخيرة ببلاء خطير، بحيث تراجعت نسبة المطالعة إلى أدنى مستوياتها، وصارت نسبة القراء اليوميين لا تتعدى ١٧ ٪، فضلا عن أن ٧٠ ٪ من الشباب لا يفضلون المطالعة وعلاقتهم مع الأنيس متردية جدا مقابل مواقع التواصل الاجتماعي، وتحولت هواية المطالعة إلى حافة الهاوية.. بل إن خمس الشعب اللبناني لا يقرأ..»[١].

كما يكشف في هذا الصدد تقرير التنمية الثقافية العربي الثالث الصادر عن مؤسسة الفكر العربي في ديسمبر ٢٠١٠م أن العرب سنة ٢٠٠٩م قاموا بتحميل نحو [٤٣] ثلاثة وأربعون مليون أغنية وفيلم، بينما قاموا بتحميل ربع مليون كتاب فقط، بينما احتلت كتب الطبخ مركز الصدارة بنسبة [٢٣ ٪] من إجمالي الكتب، وأن عمليات البحث التي قام بها العرب سنة ٢٠٠٩م على شبكة الإنترنيت عن المطرب «تامر حسني» ضعف عمليات البحث التي قاموا بها عن نزار قباني والمتنبي ونجيب محفوظ ومحمود درويش مجتمعين[٢].

وهذه كلها مؤشرات اجتماعية فارقة وخطيرة، وعلامات معرفية مميزة ومفزعة، لاسيما أنها تُمحص وتكشف عن نوعية الأفراد الذين بات يضمهم المجتمع يوميا إلى صفوفه وفئاته وقواه الحية، مقابل انكماش الفئات القارئة والمُطلعة والباحثة، وطغيان فئات أخرى أقل قراءة واطلاعا ومعرفة ووعيا، وبالتالي بروز وتوسع وسيطرة الفئات الأقل إدراكا للحقائق، والأنقص استشعارا للمؤشرات، والأبلد إحساسا للتغيرات المؤلمة والموجعة الحاصلة في مسار التحولات التدميرية في مجال إنسانية الإنسان، وإنسانية المجتمع البشري الراقي والمتميز عن سائر الموجودات بفعل القراءة المقدس.

١- انظر: رنه جوني، الشباب انقراض الثقافة العميقة، ص ١٠ و ١١ و ١٢، بتصرف.

٢- انظر: محمد سيد ريان، القراءة في العالم العربي، ملحق مجلة العربي البيت العربي، العدد ٦، ماي ٢٠١٢م، ص ٥.

كما يجب علينا أن نعترف أيضا أننا لاحظنا تراجعا خطيرا في وتيرة اقتناء الكتاب الورقي وقراءته أيضا، أمام معطيات المعرفة الإلكترونية المتوفرة ضمن أنساق شبكة التواصل العنكبوتي والمعلوماتي السريع والكثيف والدقيق، ما أدى إلى انحسار وضيق طبقة وحجم القراء، من الأوفياء للمعرفة والقراءة عبر نسختها الورقية، لاقتصارها على ما تقدمه محركات البحث الجاهزة والمريحة من وجبات مختصرة ومحصورة في عينة السؤال أو المسألة المطلوبة والمبحوث عنها، الأمر الذي أبعدها عن ممارسة وإحياء فعل القراءة المقدس، المطلوب لعينه ولغايته ولوسيلته، ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ (محمد: ١٩)، ما أدى إلى رشح نتائج كارثية في عموم طبقات وفئات المجتمعات العربية والإسلامية من الناحية: الفكرية والتصورية والعقلية والمعرفية والإدراكية والسلوكية والتربوية والأخلاقية، لعل أبرز معالمها ومظاهرها الإقبال الرهيب على تأسيس الأحزاب السياسية على خلفيات لا تمت بصلة، في الغالب، إلى التنمية الثقافية والاجتماعية والأخلاقية. وهو نتاج طبيعي ومنطقي لتراجع نسبة وحجم ودرجة الوعي، الناتج أساسا عن قلة الاطلاع والقراءة واكتساب المعرفة، فلو تسنى لقادة هؤلاء الأحزاب أن يطلعوا على ما كُتب في حقل السياسة الشرعية الإسلامية بدءًا بـ «الماوردي» وانتهاء بـ «ابن تيمية» و«ابن القيم»، ثم ما كُتب في حقل الفكر السياسي العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، لما تجرأوا على تأسيس حتى جمعية سياسية صغيرة على مستوى حي أو بلدة صغيرة، لعظم المهمة، وخطر المسؤولية على الصعيدين الدنيوي والأخروي.

ومن أين كان يتسنى لهؤلاء الرصانة والوعي والإدراك المعرفي الصادق والحقيقي للتصدي لمثل هذه المهمة السياسية الخطيرة والمزدوجة في حراسة الدين وسياسة الدنيا على الصعيدين الفردي والجمعي.. من غير القراءة والمعرفة والاطلاع، الذي غاب غيابا تاما

عن واقع هؤلاء وأولئك من النخب السياسية إلا ما ندر وغيرها.. وظل محصورا فقط في فئة نخبة النخبة الجامعية فقط[1].

وفي هذا الصدد يكشف تقرير التنمية التنمية الثقافية العربي الثالث الصادر عن مؤسسة الفكر العربي في ديسمبر ٢٠١٠م أن العرب سنة ٢٠٠٩م أصدروا كتابا واحدا فقط مقابل [٣٠٠٠٠٠] ثلاثمائة ألف شخص، أما دول الغرب وخاصة أمريكا فإنها تصدر ما يقرب من [٨٥٠٠٠] خمسة وثمانون ألف كتاب سنويا، فيما تنتج إسرائيل وحدها سنويا ما بين ٢٥ و ٣٠ ألف كتاب، وهو ما يعادل إنتاج الدول العربية مجتمعة، في حين أن مصر تصدر سنويا من ١٢ إلى ١٤ ألف كتاب، منها [٨٥ ٪] تحت بند الكتب التعليمية المدرسية والجامعية[2].

إذن نحن أمام وضع معرفي مرضي وكارثي انعكس على الواقع الاجتماعي المعيش، والذي أنتج فوضى في السلم التراتبي لفئات المجتمع، التي صارت بحكم غياب هذه الآلية الشريفة، وتراجعها أمام سطوة وسائل الموجة الإعلامية والاتصالية التكنولوجية والإلكترونية الخامسة، التي تؤهل الناس جميعا للكتابة وقول ما تريد سواء أعرفت أم جهلت ؟ أأتقنت وحفظت أم ضيعت ؟، إلى غياب فئة النخبة، محققة حكمة الشاعر «الأفوه الأودي» فيها حين قال:

تمضي الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا[3]

١- انظر: مليكة حفيظ، واقع الكتاب الجامعي في الجزائر، مجلة البحوث والدراسات العلمية، جامعة الدكتور يحي فارس، عدد ٠٦ - مارس ٢٠١٢م.

٢- انظر: محمد سيد ريان، القراءة في العالم العربي، ملحق مجلة العربي البيت العربي، العدد ٦، ماي ٢٠١٢م، ص ٥.

٣- انظر: ديوان الأفوه الأود،ي تحقيق: د. محمد التونجي،- دار صادر-بيروت،- (١٩٩٨، وعباس محمود العقاد، فلاسفة الحكم في العصر الحديث، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص ١٥٢.

❋ أزمة الأجيال في شبكة الإنترنيت:

إن الخيبة والانكسار القيمي الحقيقي ليس في وهم الأجيال في الشبكة العنكبوتية فحسب، بل في خيبة رجال الإصلاح والدعوة والتربية من الأخلاقيين والاجتماعيين وغيرهم في تداعيات ومخلفات الشبكة نفسها تربويا وأخلاقيا وقيميا واجتماعيا...، فمع ميلاد الموجة الخامسة من وسائل الإعلام الإلكترونية مطلع الألفية الثالثة طلع علينا رواد العولمة ومبشرو الوسائط الإلكترونية، وأنصار شبكات الإنترنيت والتواصل الاجتماعي أمثال: (نيكولاس نيغروبنتي) و (بيل غيت) و (بيار ليفي) و(آل غور) نائب الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) يبشرون بفتوحات الإنترنيت أو ما يسمونها بـ «الطريق البرقي للمعلومات»، التي ستمكن -بزعمهم- البشرية من الاطلاع والتواصل والتفاعل والتعامل والتعاون والانتشار السريع لروح الديمقراطية وترقية حقوق الإنسان وحريته.. تموت فيه كل الخصوصيات والمميزات لتتحد عبر ثقافة كوكبية جديدة قوامها الحرية والحقوق والرقي.

غير أننا وحسب الأستاذ الدكتور الباحث «نصر الدين لعياضي» محتاجون إلى إثارة السؤال الاستفزازي: «هل تشكل شبكة الإنترنيت مصدرا آخر لخيبة البشرية؟ فقد «يعتقد البعض أن طرح هذا السؤال بعد أن تغلغلت هذه الشبكة في مفاصل حياتنا اليومية، ينم عن أفكار معادية للتكنولوجيا. إنها من طينة تلك الأفكار التي توارثتها الأجيال منذ اختراع القطار البخاري. لقد زعم معارضو هذا القطار أن ركابه يعانون الاختناق في الأنفاق التي يقطعها، وإذا زادت سرعته عن ٥٠ كيلو متر في الساعة فستنزف دماؤهم وتسيل أنوفهم وآذانهم، يموتون من شدة الصدمة..»[١].

١- انظر: نصر الدين لعياضي، وهم الأنترنيت أو أوهام مفكريها ؟، جريدة الخبر، عدد- ٦٨٥٢، الإثنين ١١/٠١/٢٠١٢م ١٥/ذو القعدة/١٤٣٣هـ، ص ٢١.

وهو لا يعارض التطور التكنولوجي الذي تتوصل إليه البشرية، ولكنه يعارض الاستخدامات السلبية والمدمرة للمنجز الإلكتروني والتكنولوجي، فيصير بذلك الإنسان عبدا مطواعا لمنجزاته، وهو ما يختلف مع مقصد الحرية الذي ينشده في كرامته الإنسانية، ثم ينتقد المبشرين غير المتحفظين على الوسيلة لافتا نظرنا إلى أهمية التحفظ على مطلقية الانتفاع من الوسيلة، فيقول: «.. هل لاحظتم اتساع رقعة جغرافية الحروب في ظل استخدام الإنترنيت ؟ وهل أدركتم مستوى احتقان العلاقة بين الديانات والأعراق والقوميات الذي عززه موقوع اليوتوب ؟..».[1]

ثم يبين ذلك من خلال تتبعه واستقرائه لما تبثه تلك المواقع فيقول: «.. ألم يستخدم البعض موقع شبكة الفايسبوك لصب أحقادهم الدفينة والتعبير عن تعصبهم الأعمى والمضلل ؟..». [2]

ويخلص إلى النتيجة الحقيقية والواقعية عن الأنترنيت كوسيلة استحوذت على جُل اهتمامات البشرية فيقول: «.. إن استمرار الإيمان بأن الإنترنيت ترقي الحوار والتفاهم بين البشر وتردم الضغائن والأحقاد وتقيم السلم في العالم، هو ضرب من العناد أو أنه التسليم بالإيديولوجيا التكنولوجية التقنية، التي ترى أن حل كل المشاكل التي تعاني منها البشرية يكمن في العدة التقنية ؟ مهما كانت الإجابة على هذا السؤال، فإن هذا الإيمان يذيب كل ما هو سياسي واجتماعي واقتصادي فيما هو تقني..»[3].

وهكذا، إذن، لم تقتصر الخيبة والوهم على القاعدة الجماهيرية الاتصالية الحقيقية والمرتقبة، التي هزلت تحصيلاتها وارتياداتها ومكنزها

١- انظر: نصر الدين لعياضي، وهم الأنترنيت أو أوهام مفكريها ؟، جريدة الخبر، عدد- ٦٨٥٢، الإثنين ٢٠١٢/٠١/١١م ١٥/ذو القعدة/١٤٣٣هـ، ص ٢١.

٢- انظر: نصر الدين لعياضي، وهم الأنترنيت أو أوهام مفكريها ؟، ص ٢١.

٣- انظر: نصر الدين لعياضي، وهم الأنترنيت أو أوهام مفكريها ؟، ص ٢١.

المعرفي والقيمي والمنهجي واللغوي والأدبي والثقافي.. فحسب، بل تعدت إلى النخبة الجامعية المتخصصة والرائدة، والتي باتت موقنة تمام اليقين: أن الأجيال المعاصرة تحصد اليوم من الشبكات المعلوماتية ومشمولاتها السلبيات إلى جانب ما يفترض من إجابيات.

*** سير الدراسة الميدانية ١٤٢٣-١٤٣٤هـ/٢٠٠٢- ٢٠١٣م:**

سبق هذه الدراسة دراسة مماثلة أُجريت على طلاب كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية قسم العلوم الإسلامية بالجزائر امتدت لأكثر من عقد من الزمن، وكانت الدراسة تركز مع مطلع وخاتمة كل عام دراسي على مشكلة القراءة والمقروئية والمطالعة لدى الطالب الجامعي في قسم العلوم الإسلامية، وظلت التجربة تتكرر، وظلت الأسئلة تعرض على طلاب الدفعات العشر منذ سنة١٤٣٣-١٤٣٤هـ/٢٠٠٢-٢٠١٣م، وكانت كل دفعة تشمل [٥٠٠] خمسمائة طالب، أي: بمعدل [٥٠٠٠] خمسة آلاف طالب طيلة السنين العشر الماضية، حيث ظلت الأسئلة تُلقى بشكل تلقائي ومباشر وطوعي وواقعي على الطلبة تسألهم لتكتشف حالهم المعرفية، وحقيقتهم التحصيلية، وصورتهم التصورية، ورؤيتهم الذاتية لأنفسهم مع فعلي القراءة والمطالعة، وكم من كتاب قرأوه أو درسوه أو طالعوه في حياتهم أو خلال مسارهم العلمي والثقافي والتكويني.

وللأسف الشديد كانت الإجابات تتكرر سنويا بشكل جماعي وكارثي ولافت للنظر بتلاشي وغياب فعل القراءة العلمية والمعرفية، والمطالعة الفكرية والثقافية، مع بعض الاستثناءات المميزة والنادرة جدا، التي كانت لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

وفي ظل هذه الغيبوبة العلمية والإغماءة الفكرية والثقافية والتكوينية تخرجت من كليتنا أعداد كبيرة من حملة الشهادات العلمية في مختلف العلوم الشرعية، دونما أن يقرأوا كتابا بعينه من الجلدة إلى الجلدة.

وهذا مؤشر خطير على انهيار منظومة التربية والتعليم والتكوين، فضلا عن كونه مؤشرا خطيرا على مصير فعلي القراءة والمطالعة، وما يترتب عليه من نتائج كارثية على نوعية النخب الحاملة للشهادات والمدفوعة إلى سوق العمل والحياة، فهم حملة شهادات بغير علم حقيقي، وعظيم الخطر هو كونهم متخصصين في علوم الشريعة.

- **نتائج الدراسة الميدانية لعام ١٤٣٣-١٤٣٤هـ/٢٠١٢-٢٠١٣م:**

ولما تجمّعت الرؤية حول هذا الموضوع الخطير، عمقنا الدراسة حول دفعة معينة تناولت [٩٠٠] تسعمائة طالب جامعي يدرسون بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية بقسم العلوم الإسلامية للعام الدراسي ١٤٣٣-١٤٣٤هـ / ٢٠١٢-٢٠١٣م، وبعد تفريغ الاستمارات وتوزيع البيانات الإحصائية تبينت الدراسة النتائج التالية:

١ - أن نسبة ٩٦ ٪ من الطلبة لم يقرأوا كتابا علميا تخصصيا في مراحل تكوينهم الجامعي العلمي، عدا بعض المطبوعات الهزيلة حجما ومضمونا.

٢ - أن نسبة ٠١ ٪ قرأوا كتبا تخصصية بمفردهم وبحكم تكوينهم المسجدي في بعض الدول العربية كموريتانيا والمغرب وسورية ومصر، والتي حفظوا فيها بعض متون العلوم الشرعية.

٣ - أن نسبة ٠١ ٪ من الطلبة قرأوا كتبا فكرية ودينية ودعوية وحركية وثقافية بحكم انتمائهم لحركات وأحزاب وجمعيات دينية.

٤ - أن نسبة ٠١ ٪ من الطلبة قرأوا كتبا فكرية ودينية ودعوية وحركية وثقافية في مراحلهم المعرفية السابقة، أما الآن فلا.

٥ - أن نسبة ١٠ ٪ من الطلبة لم يقرأوا حتى المطبوعات الهزيلة واعتمدوا على مختلف أساليب الغش والاحتيال ولاسيما الإلكترونية منها. [مع ملاحظة أنهم ضمن فئة ٩٦ ٪ ممن لم يقرأوا كتابا واحدا لا تخصصيا ولا ثقافيا].

٦ - أن نسبة ٣٠ ٪ من الطلبة احتالوا بطرق خسيسة أخرى ولاسيما نفخ علامات التطبيق، وذلك بإحضار أبحاث الطلبة السابقين لهم في العام الماضي وتغيير غلاف الأوراق فقط، وتقديمها للأستاذ المطبق الذي منحهم نقطة عالية تضمن لهم النجاح ولو حصلوا على نقطة اثنين من عشرين ٢٠/٠٢ في الامتحان. [مع ملاحظة أنهم ضمن فئة ٩٦ ٪ ممن لم يقرأوا كتابا واحدا لا تخصصيا ولا ثقافيا].

- الأسباب والنتائج:

١ - الأسباب:

وبعد التدقيق والتعمق التحليلي في الأسباب والدوافع المانعة من ممارسة فعلي القراءة والمطالعة، واستفراغ بيانات الاستمارات الموزعة على الشريحة المنتقاة للدراسة، تبين مايلي:

١ - هيمنة عالم الصورة البراق، وسطوة الأضواء الكاشفة، وسحر الشاشة الأخاذ.. على حياة الأجيال وواقعهم وتفكيرهم ووجدانهم في الغالب الأعم.

٢ - هيمنة الوسائط والوسائل الإعلامية والاتصالية والتكنولوجية الإلكترونية والبرقية على سائر مجالات الحياة، بما فيها عمليات التلقي المعرفي.

٣ - غياب المنهج التربوي والتعليمي والتثقيفي والتكويني لدى المؤسسات الاجتماعية الفاعلة: [الأسرة، المدرسة، الجامعة، المسجد، المراكز الثقافية والتكوينية، وسائط الإعلام، المكتبات العامة، الجمعيات الاجتماعية..] في تقديم التنشئة الاجتماعية والنفسية والتربوية والأخلاقية المتوازنة للفرد وللجماعة.

٤ - غياب المنهج العلمي المنضبط في التعامل مع الوقت وإضاعة الزمن الفاعل هدرا.

٥ – غياب الإرادة القوية والفاعلة والروح الإيجابية في الحياة، وعدم القدرة على التمييز بين النافع والضار ولاسيما في الإقدام وروح المبادرة.

٦ – فساد التصورات العقدية والروحية والوجدانية حيال رسالة الفرد المسلم في الحياة [خلافة، عمارة، عبادة، نهضة، بناء، نشر الخير، أمر بمعروف ونهي عن منكر..].

٧ – أمراض العصر القاتلة، وعلى رأسها الإدمان: [الإدمان على الشبكات المعلوماتية، الإدمان على الألعاب والتسالي والعنف والرذيلة، الإدمان على السهرات، ...] – مع ملاحظة أن عينات الدراسة كانت تتناول طلبة قسم العلوم الشرعية الإسلامية –.

٨ – عدم تقدير قيمة القراءة كفريضة عينية وأساسية في الدين وكعبادة متميزة فيه أيضا، وكفاروق فيصل للتمييّز بين الإنسان وسائر الموجودات.

٩ – عوامل نفسية أخرى كالشرود والغفلة والنسيان والصبر والتحمل

والتعود على محبة القراءة والكتاب والمطالعة والمكتبة.. وعدم التعود والتحكم في تقنيات القراءة وفنيات المطالعة.

١٠– خلل برامج وخطط المنظومات التعليمية كلها، واستغناؤها عن الكتاب والقراءة والمطالعة على حساب صيحات مواكبة العصر والصورة والوسائط الجديدة.

١١– كثرة الذنوب والمعاصي، والإدمان على مشاهدة المحرمات ومشتقاتها.. التي تُعمي الأبصار، وتشل الإرادات، وتقتل روح التطلع والأمل والخير في النفوس..

١٢– استباحة سائر الطرق الملتوية في سبيل نيل الشهادة الورقية دون علم، كالغش في الامتحانات، ورشوة المدرسين والمشرفين..، والسرقات العلمية، وانتحال جهود الغير..

١٣- غياب فعل القراءة عن سائر نشاطات وميادين ومجالات الحياة.

٢ - النتائج:

والنتيجة الكارثية - للأسف الشديد - خلو الأجيال والنخب المتخرجة من الجامعة من الثقافة العلمية الرصينة، والمعرفة الفكرية والفلسفية والتحليلية الثابتة، والحقيقة المنهجية الراسخة، واللغة البيانية والأدبية الجميلة، والصيغ والتعابير العلمية الدقيقة والمعبرة، والانفتاح على اللغات الأجنبية الرائدة، وبالتالي، تراجع: الوعي، والفهم العميق، والتبصر الدقيق، والتوسم وبُعد النظر، ومعرفة عراقة الثقافة العربية الإسلامية وأصالتها.

والنتيجة نشوء أجيال غريبة في تفكيرها وسلوكاتها، فصارت أجيالا لا تملك معايير التمييز والنقد في الكثير من الحالات.

فكيف يمكننا تجاوز مثل هذه العقبة الكؤود التي اغتالت وقضت على زهرة الأجيال العربية والإسلامية ؟

وكيف يمكننا كبح وتخفيف استغوال الشبكة العنكبوتية على سائر مجالات المعرفة والعودة بالأجيال نحو الكتاب والقراءة الرصينة ؟

*** تجاوز العقبة:**

كما يجب علينا أن نعترف أولا - وبكل صراحة وصدق - أنه بيننا وبين ممارسة فعل القراءة المقدس وإجراء الخطوة الأولى في هذا الفعل، وهي: الاستعداد النفسي والروحي والوجداني لتقبل ممارسة هذا الفعل بكل متعة وأريحية وسرور، ثم الاستعداد العقلي والإداركي لتثمين قيمة ومكانة وأثر هذا الفعل على النفس والجماعة والزمن الدعوي الفاعل، ثم اختيار الكتاب والمكان الوقت النفسي المناسب، ثم استشراف قيمة ومكانة وعوائد فعلي القراءة والمطالعة المكرمين.

وقد ثبت بالدراسات أنه بعد سائر الاستعدادات والتحضيرات النفسية والوجدانية والعقلية والروحية ضمن راحة النفس الإنسانية، تأتي سلسلة من الخطوات في مكونات العمليات الثانية، وهي: اختيار فن الكتاب ونوعه وزمنه وحجمه وشكله، وتوقع مدى الفائدة المرجوة منه، ثم اختيار الزمن الحقيقي والنفسي والوجداني المناسب أيضا، ثم اختيار المكان، الذي سيحدد لنا طريقة أخذ الكتاب وتناوله والتعامل معه. فقد يكون المكان مكتبة عامة في مسجد أو مركز ثقافي أو جامعة أو مركز دراسة وبحث أو جريدة عامة، أو في مكتبة خاصة، كمكتبة المنزل أو الأهل أو الخواص الموقوفة على المطالعة.. وقد يكون الزمن العلمي والفكري للكتاب ماضيا أو حاضرا أو زمنا مستشرفا، وقد يكون زمن الأخذ والتناول فترة من فترات اليوم والليلة الصباحية أو المسائية أو مطالع الليل، ومدى انعكاس كل هذه العمليات على نجاعة هذا الفعل المقدس ونجاحه.

وهنا يجد القارىء نفسه أنه بحاجة ماسة وأكيدة إلى جملة من الاستعدادات والمحفزات والدوافع التي تجعله يخصص جزءً من وقته لممارسة هذا الفعل المقدس، وقد تكون هذه المحفزات ذاتية خاصة، أو خارجية طارئة وقادمة من طرف آخر، وقد يكون هذا المحفز الخارجي: أبا أو أما أو أخا أو أختا أو أستاذا أو مربيا أو شيخا داعيا.. وقد يكون محفزا سياسيا أو اجتماعيا أو أخلاقيا أو تربويا أو نفسيا أو دينيا.. وينجح إن كان سهلا مبسطا يسيرا، غير غامض ولا معقد، يُسهل قدر الإمكان الدخول في ممارسة هذا الفعل المقدس، كما بدأ الأستاذ الدكتور «محمد صالح حمدي» سلسلة كتبه الاقتصادية بالنصيحة التالية والموجهة للقارىء فقال، وهو يُمهد لكتابه «القواعد الفقهية والمعاملات المالية»: «أخي القارىء: عدد الكلمات في هذا الكتاب ٦٥٤٤ كلمة تقريبا، فإذا كان معدل قراءتك في الدقيقة الواحدة ١٧٠ كلمة، فأنت في حاجة إلى ٣٩

دقيقة فقط لإنهاء قراءة هذا الكتاب، فلنحرص أخي على ملء أوقاتنا بما ينفعنا.». [1]

فهو - هنا - يُسّهل على القارىء هذا الفعل بهدف جذبه نحو ممارسة هذا الفعل المقدس، دونما حسابات تُذكر سوى حساب استثمار الوقت في الأمور النافعة، وأي نفع أعظم من المعرفة والاطلاع على ما يجهله الغير، وتعرفه أنت.

فالمسألة، إذن، تكمن في الانخراط الطوعي أو القسري لممارسة هذا الفعل المقدس منذ الصغر أو حين الكهولة أو حين الكبر، بالرضى والأريحية التربوية التلقائية، أو بدوافع ومحفزات كثيرة، كدافع حب الاطلاع والمعرفة، أو بدافع الترقية في المنصب المهني، أو بدوافع التفاعل والتألق والبروز الاجتماعي، أو بدوافع البحث والتحقيق والضبط لقضايا موضع خلاف أو لغيرها من المحفزات والدوافع الكثيرة الأخرى.

والمهم هو أننا، من خلال هذه الدراسة الميدانية والدراسة الميدانية التي التي ستليها، حاولنا أن نُشخص واقع القراءة والمطالعة المتردي والمتراجع في عالمنا العربي والإسلامي لنحس بالمشكلة إحساسا يكافىء قيمتها وقدرها في منظومتنا الإسلامية التي تعدها فريضة وعبادة وفاصلا فاروقا بين الفرد وسائر الموجودات والمخلوقات، ومن ثَمَ نحاول تقديم جملة من الرؤى والتصورات ومشاريع الحلول لحالة التردي القيمي والمرجعي التي آل إليها صفوة نخبنا، واستصراخ ضمائر الغيورين والمهتمين من الأمة لمعالجتها في الأجيال القادمة.

ولكن قبل هذا وذاك، يجب علينا أن نعالج أثر وسائط الإعلام الإلكترونية الحديثة على مهارتي المطالعة والمقروئية.

١- انظر: محمد صالح حمدي، القواعد الفقهية والمعاملات المالية، مركب المنار للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، ص ٢.



الفصل الثالث

أثر الإعلام الجديد على مهارتي المطالعة والمقروئية

تبين من خلال الدراسات والأبحاث المتخصصة التي قُدمت في هذا المجال، سواء على المستوى الأكاديمي أو الفكري أو الأمني الاستراتيجي.. أن الزيادة المفرطة في حجم وكم وسرعة وزخم وتدفق المعلومات والمعارف والحقائق.. عبر شبكات الانترنيت وغيرها من شبكات التواصل لم تزد في نسبة المطالعة والمقروئية، ولم تشجع على بلوغ مستوى التنمية المعرفية المرجو لدى الفرد والجماعة، بل أربكت الفرد والجماعة، وحطمت قواه المعرفية والفكرية والنفسية، وجعلته عاجزا عن الإحاطة والسيطرة على سيول تلك التدفقات المعلوماتية والمعرفية، فضلا عن الاستفادة منها واستثمارها في الحياة.

وتسبب الإعلام الجديد في تفكيك بُنى المجتمعات الثقافية والتقليدية معا، وأثّر تأثيرا مباشرا على الكتاب الورقي والأدبيات التي رافقته طيلة القرون السابقة، ما أدى إلى نهاية عصر الكتاب الورقي بمقابل الكتاب الإلكتروني، الذي صار بديلا سريعا وكافيا ورخيصا للفرد الإلكتروني الخامل والكسول مع الكتاب، ولكنه فشل، في العديد من الحالات، في تركيز وتعميق وتأسيس الفرد المعرفي القيمي.

*** مجتمع الإعلام والمعلومات والمعرفة:**

يُسهب الدارسون والباحثون في مجال الثقافة المعلوماتية بالثناء على المستوى السامق الذي وصلته الإنسانية في الألفية الثالثة في مجال إنتاج، ونشر، وحفظ، وجمع، وفهم، وتطويع، واسترجاع، وتفسير وإعادة تفسير، ودمج، وصياغة المعلومات والمعارف والحقائق والمكتوبات والمدونات والكتب الإلكترونية الضوئية. ويتفاخرون

بإطلاق مصطلح: «مجتمع المعرفة»[1] على المجتمعات المتقدمة.

ويعدّون - بكل فخر واعتزاز - هذا المستوى الذي وصله العقل البشري في الألفية الثالثة بأنه هو أحسن وأعظم وأثرى تراكم معرفي وعلمي ومنهجي وصلته البشرية اليوم، ينضاف إلى مخزونها المعرفي وتراكمها الحضاري والتراثي، كما يدخل أيضا ضمن صيرورتها الدينامكية الإنسانية الشاملة والمتجددة.

وقد أدى هذا المستوى التكنولوجي والإلكتروني الهائل إلى إثارة جملة من التساؤلات الإشكالية حول مصير وموقع الكثير من مصادر المعرفة والفكر والثقافة، وعلى رأسها الكتاب الورقي، الذي ظل لقرون طويلة رفيق الإنسان وصاحبه ورائده إلى عالم المعرفة والفكر والثقافة، بل إلى طرح تساؤلات محورية حول مناهج ومخططات وتصاميم البنية المعرفية لمجتمعاتنا العربية والإسلامية، في مجال البنية التحتية لأنظمة التربية والتكوين والتعليم والتثقيف في ظل هذا التسارع المعلوماتي المذهل.

وتجلت أولى هاته التداعيات المعرفية الإلكترونية على الكتاب الورقي الذي شكّل طيلة قرون طويلة المصدر الرئيس والوحيد لتبادل ونقل ونشر وتعميم المعرفة والثقافة [2]، وهو أحد إفرازات المشكلة المراد معالجتها في هذه الورقة البحثية الموجزة.

١- يطلق اسم مصطلح مجتمع المعرفة على المجتمع الذي يعطي جل اهتمامه لبناء المهارات والقدرات للبحث عن المعلومات وتصنيفها وتنظيمها ومعالجتها وإتاحتها للجميع من أجل استخلاص المعرفة وإبداع معرفة جديدة، وتوسيع نطاق تطبيقها في شتى أغراض التنمية الإنسانية عموما والتنمية الاقتصادية والاجتماعية خصوصا، بحيث تغدو صناعة المعرفة قطاعا اقتصاديا قائما بذاته يفوق في أهميته أي قطاع آخر. ومجتمع المعرفة كمفهوم وعملية تبنته الدورة الأولى للقمة العالمية حول مجتمع المعلومات، المنعقدة في جنيف في ديسمبر ٢٠٠٣م بدلا من «مجتمع المعلومات «الذي يُركز على البنى التحتية التي توفر تقنيات المعلومات والاتصالات والإعلام، وتكفل نشر المعلومات وتبادلها وتسويقها واستهلاكها. انظر: نبيل علي، إقامة مجتمع المعرفة كمحور للنهضة، ص ٨٤. و نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، ص ١١٩.

٢- انظر: سمير إبراهيم حسن، الثورة المعلوماتية عواقبها وآفاقها، ص ٢١٠. نقلا عن: محمد الفاتح حمدي وآخرون، تكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة، ص ٤٧ و ٤٨، بتصرف.

وقد سيطر مصطلح «مجتمع المعلومات» على البنى الفكرية والمعرفية والتطبيقية في العقد الأخير من القرن الواحد والعشرين، وصار مواكبةُ هذا التطور السريع والمذهل في تدفق المعلومات أمرا عسيرا على الأفراد والمجتمعات، لأنه – على حد قول فرانك كيليش Frank ouelich –: «بتنا ننتظر فجرا جديدا سرعان ما يلوح بعده مغيب جديد، لن يُمكننا من التمتع بأشعة الشمس» [1]. فعجزنا معه على مواكبة واستيعاب القديم فضلا عن اللحاق بالجديد الثرّ، والمتجدد الغزير.

وقد حل مصطلح «مجتمع المعرفة» في الأدبيات التواصلية العالمية بُعيد جلاء الرؤية عن مفهوم «مجتمع المعلومات» الذي هيمن على ساحة التواصل والتفاعل العالمي في العقد الأخير من القرن العشرين، متجاوزا مصطلح «مجتمع الإعلام العالمي» الذي رسمت معالمه الولايات المتحدة الأمريكية بُعيد عام ١٩٩٥م. [2]

١– انظر: سمير إبراهيم حسن، الثورة المعلوماتية عواقبها وآفاقها، ص ٢١٠. نقلا عن: محمد الفاتح حمدي وآخرون، تكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة، ص ٤٧ و ٤٨، بتصرف.

٢– مجتمع الإعلام هو المجتمع الذي رسمت معالمه الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٥م من خلال مشروع الطرق السيارة للمعلومات الذي يبشر «العائلة الإنسانية العالمية» بخيرها الوافر لبني البشر. وسرعان ما تلقفت الدول السبع الكبرى الفكرة لتقرر في العام نفسه قيام «مجتمع الإعلام الشامل»، وما لبثت أن أقرت الدول الـ ١٥ الكبرى في عام ٢٠٠٠م تفعيل مجتمع الإعلام هذا من خلال التركيز على الإنترنيت. ويقصد بمجتمع الإعلام مجتمع تقنيات الإعلام والاتصال فائقة القدرة على تبادل المعلومات ونشرها في كل دول العالم، أو هو مجتمع الثورة الرقمية، التي أدمجت نظم دلالات المكتوب / الصوت / الصورة، من خلال نظام وحيد يمكّن من نقل الصوت والصورة بسرعة الضوء، محدثا بذلك تحولات جذرية في عالم الاتصال والترفيه، وشجع من جهة على اندماج المؤسسات الإعلامية، ومكن من جهة أخرى على تحكم الشركات الصناعية المرتبطة بشبكة الإنترنيت وشبكة الهاتف الجوال والكابل والإشهار والرياضة والبنوك في وسائل الإعلام والاتصال، وما لبثت أن اندمجت في شركات عملاقة متعددة الوسائط، تنتج الأفلام والكتب والأقراص المغناطيسية والألعاب، وتقديم خدمات البيع بالمراسلة، ومعاملات البنوك، وتمتلك فرق كرة القدم وغيرها. انظر: المنجي الزيدي، ثقافة الشباب ومجتمع الإعلام، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، العدد ١، المجلد ٣٥، يونيو وسبتمبر ٢٠٠٦م، ص ٢٠٦ و ٢٠٧، نقلا عن: أحمد علي الحاج محمد، العولمة والتربية آفاق مستقبلية، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٤٥، السنة الحادية والثلاثون، رمضان ١٤٣٢هـ، ص ٣٣.

ويمكن حصر إيجابيات مجتمع المعلومات فيما يلي:[1]

١ - اكتسحت كل دول العالم، بما فيها الدول التي كانت توصف بالمعزولة، وأوجدت أسواقا جديدة موصولة ببعضها على الصعيد العالمي، ضمن نسق حرية النقد ورأس المال الأجنبي.

٢ - فككت وأنهت حدود الزمان والمكان، وتجاوزت الحدود الجغرافية والسياسية، واخترقت الثقافات القومية.

٣ - أدت إلى الزيادة المذهلة في انتقال السلع والخدمات والاستثمارات نتيجة التحرير المتنامي للأسواق، والفضاءات الاقتصادية، والتبادلات التجارية.

٤ - أدت إلى النمو المتسارع في تبادل المعلومات والأفكار والمعرفة والقيم، والتعامل معها وفق آليات السوق.

٥ - عملت على إيجاد منظمات دولية فاعلة لها من الهيمنة القوية على الحكومات الوطنية.

٦ - تنوع أشكال الكتاب الإلكتروني، وانتشار النشر الذاتي.

٧ - نهاية عصر المؤلف التقليدي وتزايد عدد الكتاب والمؤلفين والمدونين.

٨ - إعادة صياغة مؤسسات وبرامج التعليم، ونهاية عهد مؤسسات التعليم عن قرب[2].

١- انظر: إبراهيم آل عبد الله، التعليم والأمن في عصر العولمة، مجلة المعرفة، العدد ٥٣، نوفمبر ١٩٩٩م، ص ١٠٥، نقلا عن: أحمد علي الحاج محمد، العولمة والتربية آفاق مستقبلية، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٤٥، السنة الحادية والثلاثون، رمضان ١٤٣٢هـ، ص ٣٠.

٢- انظر: إسماعيل سراج الدين، تداعيات الثورة المعرفية، مجلة العربي، الكويت، عدد ٦٣٥، اكتوبر ٢٠١١م، ص ٩٣. وقد ذهب الكثير من الباحثين بعيدا في دراسة أثر وسائل الإعلام الجديد على مختلف ميادين الحياة، وتبين لهم حدوث تطورات جذرية في ميادين التربية والتعليم والتكوين والتثقيف والتدريب والتمهين، حيث سيغيب الإنسان كفرد من مسرح العمليات التكوينية، أمام سطوة الآلات والتقنيات العالية التأثير، كالتعليم عن بعد، والتعليم بواسطة البرامج والحواسيب الآلية والروبوكوب وغيرها من فتوحات الإعلام الحداثي الجديد ففي رأيهم سينتهي عصر المعلم والفصل والحجرة الدراسية والمدير والوثائق والامتحانات والورق وغيرها من مخلفات الأنظمة التربوية والتعليمية البائدة.. وقد رأى بعضهم أن التعليم الجامعي العالي هو الذي سيحظى بالنصيب الأكبر والأول في هذا التطور الإلكتروني المذهل.. متناسين الآثار السلبية لهذا الانعزال.

* مجتمع الكتاب الورقي:

ظلت المطالعة - كهواية فردية رافقت الفرد المطالع وميزته - رمزا من رموز التمدن ضمن الجماعة لقرون طويلة جدا، حيث شغل الكتاب واقتناؤه والبحث عنه والاستمتاع بمطالعته والتباهي بحيازته شكلا من أشكال البروز الاجتماعي والتفوق الحضاري..

كما كانت آلية المقروئية لعقدين خليا من أهم مواصفات النخبة المفكرة والفاعلة، باعتبارها الوسيلة الوحيدة والمهمة في صياغة مشاريع المثقفين والنخب مستقبلا، وساهمتا كآليتين مهمتين في صناعة المثقف، وتكوين النخبة.

وظل الكتاب الورقي أهم منجز ووسيلة يُعتمد عليها في نقل وتبادل ونشر المعارف والمعلومات لقرون طويلة من تاريخ الإنسانية الثقافي، وصنف الدارسون الكثير من المؤلفات في علم الكتب والمكتبات وأسواق الورق والوراقين ونوادرهم وحكاياتهم، حتى جاء عصر الطباعة الحديثة على يد «يوحنا جوتنبرج» في القرن الخامس عشر فتطور وارتقى وشاع بين عموم المثقفين والمتعلمين، وصار الأداة الوحيدة للتواصل الثقافي والعلمي، لا ينافسه في ذلك أي وسيلة أخرى حتى بعد اختراع طباعة الصحافة والمجلات، وصولا إلى مرحلة مواكبته وترافقه مع المدونات والكتب الإلكترونية بكافة أشكالها وأنواعها، دخوله في مرحلة منافسة الكتاب الإلكتروني له، واعتماد المثقفين عليه أكثر من النسخ الورقية. [1]

ويمكن حصر منافع العصر الورقي في المعطيات التالية:

١- انظر: إبراهيم إمام، الإعلام الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، ص ٢٩.. وعبد اللطيف حمزة، الإعلام وتاريخه، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.. وغيرهما. وقد حفل التراث الفكري العربي بالمؤلفات المكتبية وهي كثيرة جدا من مثل: «آداب المعلمين» لمحمد بن سحنون، و «رسالة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة، و«أيها الولد» لأبي حامد الغزالي، و «أدب المتعلم والعالم» للعلموي..

١ – تكوين مهارات وملكات القراءة لدى الأفراد.

٢ – ترسيخ قيم وتقاليد التفاعل بين الكتاب والإنسان.

٣ – تعميق الفهوم وترسيخها لدى الباحثين.

٤ – تضييق دائرة الكتابة والتأليف على المتخصصين والقادرين على صناعة المعرفة.

٥ – تخريج أجيال رصينة ومتميزة وقادرة على استيعاب المعرفة.

*** المجتمع الإلكتروني والمجتمع الورقي:**

ومع التطور الإلكتروني والتواصلي الهائل الحاصل في العالم اليوم تحول الفرد والأسرة والجماعة من حالة الفرد والأسرة الورقية إلى حالة الأسرة الإلكترونية، بحيث صارت تعتمد اعتمادا في سائر تعاملاتها عموما والثقافية والعلمية والفكرية والأدبية والبحثية خصوصا على المستوى الإلكتروني، ولم يعد المنزل يحتوي على تلك المكتبة الكبيرة التي تحتل المكانة الرئيسية في البيت، وصارت المكتبة عبارة عن حاوية للأقراص، فضلا عن شبكات وشاشات التواصل الفضائي. وصار المستقبل للوسيط الإلكتروني دون جدال على حد قول: «هالة صلاح الدين حسين»[١].

وبالرغم من اعتراف الدارسين بأهمية الكتاب الإلكتروني ودوره الفعال في نشر وتعميم وتيسير الحصول على المعرفة، إلاّ أنه قضى على مهارات القراءة والتحصيل الرصين والراسخ للمعرفة.

فكثرة ما هو معروض على شبكات التواصل والتفاعل الإلكتروني من كتب ومدونات في تخصص ومجال واحد، تربك الفرد المتعامل معها لكثرتها وزخمها، بحيث لا يستطيع استيعابها وهضمها والتعرض العلمي والمنهجي

١– انظر: هالة صلاح الدين حسين، تحية إلى عصر الورق ووداعا له، كتاب العربي، العدد ٨١، يوليو ٢٠١٠م، الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة، ص ٢٣٥.

لكل مادتها، ما حرم الفرد المثقف من مهارة الرسوخ والرصانة في قراءة المعلومات وفهمها.

فنشأت ما يُسمى بالقراءة الحديثة والسريعة والعابرة كمهارات جديدة للتعامل مع الزخم المعرفي المعروض، وهو شكل من أشكال الوباء الذي ابتلي به الفرد الإلكتروني، على عكس الفرد الورقي الذي يتعامل مع المادة المعروضة عليه بكثير من الهدوء والرصانة والرسوخ، فتعلق المعلومات في ذاكرته، وتتكون لديه ملكة في ذلك التخصص، على العكس من القارئ الإلكتروني الذي يُصاب بهستيريا الضوء المنبعث من الشاشات، فلا يقدر على التركيز والرسوخ وتكوين الملكات العلمية والنقدية لذلك التخصص والمجال المبحوث -ونحن هنا- لا نقف ضد تلك الوسائل، وإنما نصف حالة.

ويقول «جمال العيفة»: «**العودة إلى المطبوع**:..[1] ولتخليص الأفراد من هيمنة التلفزيون الذي غالبا ما ينشر ثقافة سطحية تحمل أفكارا عامة يقترح بعض الباحثين ضرورة تنمية مهارات القراءة بمستوياتها المختلفة والتي تعيد الإنسان إلى المشاركة الفعالة في الحياة اليومية الحقيقية وليست الحياة الوهمية التي تصنعها وسائل الإعلام الحديثة معتمدا بالدرجة الأولى على عنصر الخيال، ومن أبرز هذه المهارات نجد:

١ - القراءة المتعجلة «Skimming reading».

٢ - القراءة الانتقائية «Skipping reading» .

٣ - القراءة العادية «Normal reading».

٤ - القراءة المتعمقة «Indeph reading».

١- انظر: جمال العيفة، الثقافة الجماهيرية، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص ١٧٠.

* دراسة وتحليل نتائج الدراسات الميدانية:

أثبتت الدراسات الميدانية بما لا يدعو للشك أن الشبكات المعلوماتية بالرغم مما توفره من كم هائل من المعارف والمعلومات والحقائق، وما تضعه بين أيدي أفراد المجتمع، إلاّ أن نسبة الرقي المعرفي في تراجع دائم، فقد أثبتت الدراسة التي قام بها الباحث «ياسين قرناني»[1] حول «أثر شبكة الإنترنيت على طلبة جامعة سطيف وبسكرة» الكثير من النتائج الداعية للنظر والفهم في حصيلة النتائج العكسية الواجب التوسم فيها.

فقد بينت الدراسة التي قام بها الباحث أن استخدامات الطلبة الجامعيين (٣١٩ طالبا) لشبكة الإنترنيت والمعلوماتية وغيرها من طرق النشر والكتب الإلكترونية جاءت وفق الترتيب التالي:

١ - الهروب من الملل وملء أوقات الفراغ بلغ عدد الطلاب والطالبات [٢٠٤]، أي بنسبة [٨٨، ٦٦ ٪].

٢ - التواصل وإقامة الصداقات والتجسير مع الجنس الآخر بلغ عدد الطلاب والطالبات [١٧٦]، أي بنسبة [٦٩، ٥٧ ٪].

٣ - البحث عن فرص العمل في الخارج بلغ عدد الطلاب والطالبات [١٥٩]، أي بنسبة [١٢، ٥٢ ٪].

٤ - إنجاز البحوث الجاهزة على طريقة [نسخ ولصق] دون قراءة وتمعن بلغ عدد الطلاب والطالبات [١٤٥]، أي بنسبة [٥٣، ٤٧ ٪].

٥ - البحث عن اللذة الجنسية والإبحار في المواقع الإباحية بلغ عدد

١- انظر: ياسين قرناني، استخدامات الطلبة الجامعيين لشبكة الإنترنيت طلبة جامعة بسكرة وسطيف أنموذجا، رسالة ماجستير، غير منشورة، إشراف الدكتورة رحيمة عيساني، جامعة باتنة، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، سنة ٢٠٠٩-٢٠١٠م. وتناولت الدراسة الميدانية [٣١٩] طالب وطالبة من كليتي العلوم التقنية بجامعة بسكرة والآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سطيف، وكنت عضوا مناقشا.

الطلاب والطالبات [١٣٧]، أي بنسبة [٦٦، ٤٥ ٪].

٦ - المتعة والترفيه والتسلية والبحث عن السعادة بلغ عدد الطلاب والطالبات [١٢١]، أي بنسبة [٦٦، ٣٩ ٪].

٧ - اكتساب مهارات نظرية جديدة دون تطبيقها في الواقع بلغ عدد الطلاب والطالبات [١٢١]، أي بنسبة [٦٦، ٣٩ ٪].

٨ - البحث عن فرص عمل جديدة بلغ عدد الطلاب والطالبات [٦٤]، أي بنسبة [٩٨، ٢٠ ٪].

٩ - معرفة الأخبار المحلية والدولية بلغ عدد الطلاب والطالبات [٥٩]، أي بنسبة [٣٤، ١٩ ٪].

١٠- طلب العلم والمعرفة بلغ عدد الطلاب والطالبات [٣٧]، أي بنسبة [١٢، ١٢ ٪].

وبالرغم من سطوة وزخم المعارف والمعلومات وتراكم العلوم، إلاّ أن الطلبة الذين يُفترض فيهم التفرغ لطلب العلم صنفوا في المرتبة الأخيرة، وهو ما يعزز فشل مجتمع المعرفة في التنمية المعرفية.

وهي النتائج ذاتها التي توصل إليها كبار المفكرين في الغرب أمثال «لويس ممفورد» و«جاك إيلوك» و«سيجفريد جديون» ومن قبلهم كبار الفلاسفة أمثال: «هربرت ماركوزة» ممثلة في سيطرة التكنولوجيا على حياة المجتمع المعاصر، بل وعلى تشكيل التفكير والتوجهات الذهنية في العقدين الأخيرين من القرن الماضي، حيث حصل تحول عكسي وغير اعتيادي في السلوك الإنساني، بالانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع الإلكتروني[١] .

وانتقل المجتمع إلى مرحلة «التكنولوجيات» واستخداماتها والتعامل معها

١- انظر: جمال العيفة، الثقافة الجماهيرية، ص ١٧٠ و ١٧١. وأحمد أبو زيد، تكنولوجيا بلا حدود، مجلة العربي، ص ٣٢، بتصرف.

كأجهزة وآلات بصرف النظر عن طبيعة النظام الاجتماعي السائد وظروف الحياة المجتمعية. حيث يصبح البشر مجرد «مادة خام» ليس نسقا محايدا عن التكنولوجيات، بل مجرد مادة تكنولوجية تسير وفق نمط التكنولوجيات، فهي جزء منها. فأسلوب الحياة في مرحلة عصر «التكنولوجيات» مزيج بين الإنسان والآلة. [1]

وعليه تصبح الظاهرة التكنولوجية هنا أسلوبا وطريقة للحياة والتفاعل على كافة مستويات المجتمع الإنساني مهما كان مستواه الحضاري، فهي مدخل العولمة نحو الكوكبية المطلقة. بحيث تسعى لتصير قدر التفكير وصناعة البنى العقلية لمرحلة «التكنولوجيات»[2].

*** قراءة تحليلية في نهاية عصر الكتاب الورقي وأثره على التنمية المعرفية.**

وتحت عنوان: «هزيمة الكتاب» أشار الدكتور «أحمد أبو زيد» إلى سيطرة التكنولوجيا وهزيمة الكتاب قائلا: «فالتكنولوجيا المتجددة تتولى تشكيل عقلية الإنسان وتفكيره بما يتلاءم ومتطلباته ومتطلبات عصره. إنها تتولى صياغة التفكير منذ الصغر مع الأطفال وتعاملهم مع وسائل الإعلام الحديثة ومع الأجهزة التكنولوجية التي تزخر بها حياتهم، حيث الدعوة الآن ليكون لكل تلميذ جهاز كومبيوتر، فيما كان في الماضي الدعوة ليكون لكل مدرسة جهاز كومبيوتر، ثم صارت الدعوة ليكون لكل قسم دراسي جهازه الخاص، وهكذا.. وبعد أن كان الطلاب المتفوقون يحصلون على جوائزهم كتبا ومعاجم، صاروا اليوم يهدون أجهزة كومبيوتر، ما يدفعهم إلى الاعتماد الكلي على الكتاب والنشر الإلكتروني ونهاية عصر الكتاب الورقي، وصار

١- انظر: أحمد أبو زيد، تكنولوجيا بلا حدود، مجلة العربي، ص ٣٢، بتصرف.

٢- المرجع نفسه، ص ٣٢، بتصرف.

العيش في الضوء والصورة أكثر مما يعيش مع الخطوط والحروف والأسطر، ما استدعى تغيير الذهنيات والمخيال لمواكبة عصر الشاشة والضوء..». [1]

ومن أهم مخاطر التضييق على الكتاب الورقي ما يلي:

١ - نهاية عصر المثقف الكلاسيكي المتميز والرومانسي الحالم.

٢ - نهاية عصر العلاقة الحميمية بين الكتاب والمثقف.

٣ - نقل الفرد البشري من طور الاعتماد الكلي على الورق إلى عالم الخيال والوهم الإلكتروني، لأن تكنولوجيا الاتصال تساعد على تفتيت الثقافة في المجتمع ونشأة ثقافات خاصة أو حتى ثقافات فردية، فهي تؤدي إلى الفردية والانعزالية[2].

٤ - هدم الوحدة الثقافية والفكرية بين الشعوب على الرغم من الاعتقاد السائد بإيجاد مناخ العولمة الكوكبي وذلك بتشكيل كانتونات ثقافية معزولة للأفراد، بحيث تسعى التكنولوجيات الحديثة والمتجددة على تغذية التفكير الفردي والانعزالي والذاتي الخاص، فيصبح لكل فرد ثقافته الخاصة والمتميزة في التعامل مع الوسائط التكنولوجية، فتهدم الوحدة عوض تعزيزها لدى أفراد المجتمع الواحد[3].

٥ - خطورة الاعتماد الكلي على التكنولوجيات لقدرتها الهائلة على زيادة الانفرادية والانعزالية، على حد قول «لويس ممفورد»: «إن الحضارة التكنولوجية تدمر قدرة الفرد على المشاركة»[4].

وفي دراسة سابقة قمت بها على طلبة كليات العلوم الإسلامية حول

١- انظر: أحمد أبو زيد، تكنولوجيا بلا حدود، مجلة العربي، ص ٣٣، بتصرف.

٢- المرجع نفسه، ص ٣٢ و ٣٣، بتصرف.

٣- المرجع نفسه، ص ٣٣، بتصرف.

٤- المرجع نفسه، ص ٣٣، بتصرف.

استخدام تكنولوجيات الاتصال في تلقي الخطاب الديني أنقل خلاصة جدولين منها، فقد تبين لي منها ما يلي [1]:

جدول رقم ١ يبين استخدام الوسائل الحديثة على الخطاب المسجدي [طلبة]

عدد العينات ١١٤٠	المذياع	التلفزيون	الإنترنيت والجوال	الكتاب والمجلات	المجموع
الذكور ٣٠٠	٠٢	١٢٣	١٧١	٠٤	٣٠٠
النسبة المئوية	٣٣,٠٠٪	٢٠٪	٢٧٪	١٧٪	٩٩,٩٩٪

❋دلالات الجدول رقم ١:

وبعد القراءة المتأنية والتحليل الموضوعي لمعطيات ومتغيرات الجدول رقم (١) ظهرت لنا جملة من الحقائق لعل أهمها:

١ - تبين أن استخدام المذياع كان خاصا بالنسبة لفئة المكفوفين فقط وعددهم طالبان اثنان من مجموع العينات المدروسة ما يشكل نسبة ٣٣,٠٠٪.

٢ - تبين أيضا أن الذين يعتمدون على المكتوبات: [الكتاب، الصحف، المجلات] شكلوا أضعف نسبة مقارنة مع الذين يعتمدون على التلفزيون والإنترنيت والجوال.

٣ - تبين مخاطر تخريج جامعيين لا يقرأون ولا يبحثون ولا يكتبون ولا يعتمدون على المكتوب.

١- الدراسة بعنوان: أثر الفضائيات الدينية على الخطاب المسجدي ، قدمت لملتقى بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر العاصمة سنة ٢٠١٠م في ملتقى القرآن الكريم. ثم أعيد نشرها في مجلة البلاغ، الكويت، عدد، ١٩٩٧، الأحد ٠٦/رجب/١٤٣٣هـ ٢٧/٠٥/٢٠١٢م، الحلقة الأولى. وعدد، ١٩٩٨، الأحد ١٣/رجب/١٤٣٣هـ ٠٣/٠٦/٢٠١٢م، الحلقة الثانية.

٤ - تراجع قيمة الكتاب كوسيلة لتلقي وأخذ المعرفة مقارنة بالوسائل الحديثة.

٥ - تبين نوعية الجامعيين من ذوي الثقافات السطحية جدا وخطورة ذلك على راهن الأمة ومستقبلها ووجودها.

٦ - اعتماد الغالبية من الطلاب في تحصيل المعرفة على السرعة والسهولة والبساطة واختيار الطرق الأسرع والأسهل، على حساب الأجيال السابقة التي كانت تركب الصعاب من أجل الحقيقة العلمية.

٧ - خطورة ظهور جيل جديد من أبعاض المتعلمين والمثقفين في الأمة، وهو ما يؤكد حديث وتنبأ رسول الله ﷺ بموت العلماء وانتصار الجهال في الأمة.

٨ - هجرة طلبة العلم لبيوت الله، وتراجع قيمة الخطاب المسجدي الحقيقي والحي والمباشر لحساب الوسائل غير المباشرة، وانتصار الوسائل الباردة على الوسائل الاتصالية الحارة.

٩ - خطورة سيطرة الوسائل الحديثة على راهن ومستقبل الأمة.

١٠ - تحول القيم والمفاهيم لدى النخب الدينية وتدهورها نحو الجاهز والسريع.

١١ - فقدان روح المقروئية والاطلاع على التراث واحترامه.

١٢ - غياب الروح النقدية وشيوع الاتكالية الفكرية والثقافية.

١٣ - ظهور جيل من المتعالمين وقليلي البضاعة والثقافة الدينية، وهو أوان ذهاب العلم.

جدول رقم ٢ يبين استخدام الوسائل الحديثة

على الخطاب المسجدي [الطالبات]

عدد العينات ١١٤٠	المذياع	التلفزيون	الإنترنيت والجوال	الكتاب والمجلات	المجموع
الإناث ٨٤٠	١٦٦	٤٠١	٢٥٥	١٨	٨٤٠
النسبة المئوية	٣٨٪	٣٥٪	١٧٪	٧٪	٩٩،٩٩٪

*** دلالات الجدول رقم ٢:**

وبعد القراءة المتأنية والتحليل الموضوعي لمعطيات ومتغيرات الجدول رقم (٢) فقد تبينا عدم اختلاف الطالبات عن الطلبة في التعامل مع الوسائل الحديثة على حساب الوسائل التقليدية والخطاب المسجدي، إلاّ في مسألة استعمال المذياع، وهذا عائد إلى طبيعة الأعراف التي تحد من حرية الفتاة في المجتمع الجزائري، حيث تفضل العزلة رفقة المذياع، حيث لا يتوفر جهاز تلفزيون واحد لكل فرد في العائلة. ولعل المخاطر تكاد تكون واحدة لدى كلا الجنسين.

- الخلاصة:

نتبين أن الفضائيات والإنترنيت صارتا مسؤولتين عن تكوين الأبناء وتعليمهم وتدريسهم ووعظهم وإرشادهم، وأن المسجد لم يعد يشكل لهم محور جذب وشد، فخلت ربوع المساجد من طلبة العلم، وكسدت حلقاتها من الراغبين، لحساب الفضائيات، ما حدا ببعض الشيوخ للنزوح القسري نحو الفضائيات والهجرة الجماعية نحو المواقع الإلكترونية، إنشاء ودعوة وفتوى ومراسلة وتواصلا. بل ذهب الكثير منهم إلى حد استعمال اللهجات العامية مكان الفصحى، وتبسيط الموضوعات الدينية إلى درجة الإخلال والإسفاف.

وفي الوقت الذي أحكمت فيه هذه الفضائيات قبضتها على الأجيال المسلمة حتى في مسألة التكوين الديني، أصبح الوضع ينذر بتهديد المواهب والإمكانات، وقد وُجه سؤال لهذه الفئة المستجوبة عما إذا أحسوا بالندم أو الخوف من تضعضع مهاراتهم الأصيلة مقابل الوسائل الحديثة السهلة والقاتلة لروح المواهب، وأبدى الكثير من الطلاب أسفهم وخوفهم من فقدانهم أدبيات التعامل مع الكتاب والمسجد والإمام، ورغبتهم في العودة لاكتساب أدبيات هذه المقامات.

وعليه، وجب على القائمين بأمور هذه المجتمعات معرفة خطورة نشوء الأجيال على الفراغ المعرفي، ومآلاته على الأمة وراهنها ومستقبلها ومصيرها بين الأمم، وذلك باتخاذ التدابير التالية:

١ - تشجيع روح المقروئية وآلياتها، ورفع قيمة الكتاب وكل ما يدعم مكانته وقدره.

٢ - رفع شعار الندوة الدولية في ميونيخ سنة ٢٠٠٢م عن وسائل الاتصال الحديثة: [منذ متى وأنت غارق في شبكة المعلوماتية ؟].

٣ - تفعيل دور الأسرة الثقافي والأدبي والديني واللغوي.

٤ - اختيار النوعيات الرائدة والمتزنة من الكفاءات العاملة في البث الفضائي.

٥ - مراعاة قيمة الوسائل التقليدية ولاسيما المسجد والكتاب والعالم كقيمة دينية تتميز بها الأمة الإسلامية دون غيرها من الأمم والمحافظة عليها كواجب ديني مقدس.

*** الدعوة إلى الإنسانية والورقية:**

وهنا أحب أن أشير إلى رأيي الخاص في المسألة، فبعد استعراض نتائج الدراسات والأبحاث في مجال الورق والتكنولوجيات، لا بد من الدعوة إلى أنسنة التكنولوجيات وأخلقتها وتهذيبها، فهي مجرد مخلوق ومنجز بشري على الإنسان التحكم فيه، لا العكس.

كما ندعو إلى تحصيل وإكساب الأفراد مهارة القراءة، ومن ثم رفع نسبة المقروئية، وهي مهارة ممكنة جدا، وممكن إيصالها للآخرين بإيجاد حوافز ودوافع، ومن ثم نحصل على جيل مزدوج التعامل، وبه يمكننا تحقيق إنسانية الإنسان، وهذا ما يدعو إليه عقلاء العالم بعد إحساسهم بالأزمة المتنامية. يقول «دانيال بورستين - Daniel Boorstin» أمين مكتبة الكونغرس سابقا في دعوته للقراءة بقوله: «من أجل أن نستفيد من شعب من القراء لا بد أن يكون لدينا مواطنون يستطيعون القراءة، إن واجبنا المحدد الأول هو عدم السماح للصورة الإلكترونية المنشورة أو الكلمة الشائعة بأن تحُول بيننا وبين الجهد الأساس لتربيتنا، لا بد لنا من تنشئة مواطنين مؤهلين لاختيار تجربتهم بأنفسهم، ومن كتب الماضي والحاضر، وبذلك نؤمّن الاستقلالية التي يستطيع القارىء وحده أن يستمتع بها». [1]

وفي ختام فصلنا هذا ننقل هذه الخلاصة للباحث «أنطوان زحلان» في دراسته القيمة «العلم والسيادة التوقعات والإمكانات في البلدان العربية»: «إن المجتمعات القادرة على تحويل المعرفة إلى نواتج مفيدة ومناسبة تزيد باستمرار من المسافة التي تفصلها عن البلدان التي تكون غير قادرة على ذلك. وقد سيطرت هذه الفجوة المتسعة بين الأمم منذ العام ١٨٠٠م على الحضارات والاقتصادات وعلاقة القوى بين الدول. وقد أدت الإنجازات في تقدم المعرفة إلى أنماط جديدة من الاستعمار والإمبريالية، وإلى حربين

١- انظر: جمال العيفة، الثقافة الجماهيرية، ص ١٧٢ و ١٧٣.

عالميتين، وإلى أشكال جديدة من العلاقات الدولية، مثل نمط العولمة الحالي للاقتصاد العالمي. وقد تخلفت تلك الدول التي لم تستطع أن تدير علاقاتها مع إنتاج المعرفة واستهلاكها، وبقيت في حالة فقر» [1]. فما بالكم بمجتمعات لا تقرأ؟ ولا تحاول القراءة؟ ولا تعرف؟ ولا تحب أن تعرف؟ وغير قادرة على هضم معارف الآخر؟ فضلا عن إنتاج المعرفة؟

*** التحذير من هيمنة الوسائط:**

ومن هنا صار من المؤكد والضروري علينا كباحثين مهتمين بمثل هذه القضايا الإعلامية والاتصالية والدعوية، لفت الانتباه والتحذير وتجميع رؤى وتوجهات الباحثين الآخرين في سائر التخصصات العلمية والإنسانية الأخرى.. من هيمنة وسائط ووسائل الموجة الإعلامية والاتصالية الخامسة الإلكترونية والبرقية الساحرة.. على حياة الجماهير، بحيث حولتها إلى جماهير إلكترونية بامتياز، وأبعدتها عن القراءة الرصينة الرومانسية التقليدية العميقة، الأمر الذي أوجد نخبا فاترة فارغة كليلة، قليلة الاطلاع والبحث والاكتشاف والمعرفة، قليلة التحصيل والاستيعاب والادخار، فضلا عن العطاء والبذل والإنفاق والتزكية.

وصارت عمليات التحصيل المعرفي والعلمي من أيسر ما يتخيله الخاملون اليوم، تتم بكتابة [جملة قصيرة، أو كلمة أو مجموعة كلمات، أو رمز أو حرف..] في محركات البحث العالمية كـ [غوغل – Google] لتعطيك نتفا ومِزَقاً أو أشلاء معلومات عن ما طلبته من معارف في موضوع ما، وليس هذا اتهاما لتلك المحركات، إذ إن أهميتها في مراحل البحث الأولى ضرورية، على العكس من الطريقة التقليدية الرومانسية البحثية الجادة، التي كانت قادرة على تشكيل مكانز ومخازن من الثروات العلمية والمعرفية لدى عقل الباحث أو القارىء المطلع، الذي كان بإمكانه حشد الكم الهائل من

١– انظر: أنطوان زحلان، العلم والسيادة – التوقعات والإمكانات في البلدان العربية، ص ٢٤.

المعارف والمعلومات والتجارب والخبرات أثناء قيامه بممارسة فعل القراءة والمطالعة، أو أثناء بحثه في موضوع ما، فيصادف معارف ومعلومات أخرى لا علاقة لها بالموضوع المبحوث، ولكنها ستكون في يوم ما ذات علاقة بخبرات ومعارف وطيدة الصلة بموضوعات وقضايا بحثية أخرى.

وهو ما يدفعنا إلى تثمين منافع المطالعة الموروثة عن الحقب الحضارية الإسلامية الزاهرة، وتقدير الفوائد العظيمة المكتسبة من فنون وأدبيات القراءة التقليدية من الكتاب الورقي، والدعوة الصريحة والواضحة والجادة لممارسة الفعل نفسه مع الكتاب الإلكتروني المعاصر، أو مع غيره من وسائل ووسائط الموجة الإعلامية والاتصالية الإلكترونية الحديثة جدا والبرقية الضوئية الساحرة، دونما سيطرة أو هيمنة للوسيلة على القضية أو الموضوع المراد بحثه، فإذا كانت الكتب المتعلقة بالبحث ورقية ومازالت بعد لم تتشكل إلكترونيا وشبكيا، بَحَثْنا دونما إغفال أو إهمال لما تختزنه الشبكة الإلكترونية من الكتب والمعارف والحقائق السريعة المطابقة للتراث والموافقة للمطبوع، وإن كانت الكتب متوفرة في شكلها الإلكتروني والورقي معا، اكتسبنا الحسنيين منهما، واعتمدنا عليهما معا وبالدرجة والمستوى نفسه من الرصانة والثبات والدقة والاتزان والتحليل والتعمق، فنكون قد أفدنا من منجزات عصرنا، وعشنا حيوية واقعنا السوي المستقيم.

أما أن ندفن تراثنا الورقي المعرفي الضخم جدا، والمفيد والصالح في معظمه، مقابل التفاعل غير السوي مع عالم الإلكترونيات، بحجة الحداثة والمعاصرة والسرعة والتقدم في الإنجاز، فهذا هو عين الدمار الأرعن. وهذا «لا يعني بحال الانكفاء على الذات في عملية التحديث والتنمية، والتجاهل لعمليات التحديث والتنمية العالمية، وعدم الإفادة من رؤيتها ومنهجيتها، وإنما التأكيد أن عملية التنمية والنمو لا يمكن إلاّ أن ترتكز إلى شيء قائم فتنميه ذاتيا، وبذلك لا تتحقق إلاّ من خلال الذات والبناء على الأصول

الحضارية ذاتها، وإلاّ ستكون حركة في الفراغ، إذ لا يمكن أن نتصور قيام واقع أمة، الذي هو ثمرة أو انتكاسة لامتداد حضارتها، على أصول حضارة أخرى..»[١].

وهذا ما يدفعنا بكل تلقائية إلى تناول منافع القراءة والمطالعة وفوائدهما، وأثرهما في عملية التغيير على المستوى الفردي والجمعي والاجتماعي والكياني وفي مختلف المجالات.

١- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر، عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ١٠.



الفصل الرابع

المنافع التغييرية للقراءة الآنية والمستقبلية

- **مكانة القراءة والكتابة في المنظومة الإسلامية:**

مجد الإسلام العلم والتعلم والتعليم والقراءة والكتابة تمجيدا لا مثيل له بين سائر الأديان، ورفع من قدره وقدر رجاله والعاملين في مجاله في شتى ميادين الحياة، ورفع من مستواه ومكانته المرجعية، وجعل طلبه عبادة وفريضة على كل مسلم، لقوله عليه الصلاة والسلام: [طلب العلم فريضة على كل مسلم][1].

وقد سمَّى الله سبحانه وتعالى «العلم» = رحمة في قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف: ٦٥)، فلو لم تكن المعرفة معبرا وسبيلا صحيحا ومؤتمنا للنهضة والتقدم والصلاح والإصلاح لما قدَّم الله لنا هذا الدرس القرآني عن شخصية دينية بارزة وعَلَم من أعلام النبوات عليهم الصلاة والسلام، وهو يتلقى دروسا مِّن «عبد» من عباد الله، منح العلم والرحمة[2].

كما جعل كل مشمولاته ومتطلباته ومسالكه وأدواته ومادته والمشتغلين والمنشغلين به مكرمين ممجدين مبجلين إلى يوم القيامة، وجعله عبادة إسلامية متميزة، ومسلكا من أهم مسالك كسب الرضوان والعروج لجنب الله تعالى، لقوله صلى الله عليه وسلم: [من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم لرضا الله عنه وإن العالم ليتسغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان

١- أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب العلم ٢٢٠، والطبراني في المعجم الأوسط ٩، وأبويعلى في معجمه ٣٢٠، وإن ضعفه السيوطي في اللآلىء المصنوعة من الأحاديث الموضوعة لعبارة «ومسلمة» وصححه الشيخ محمد ناصر الدين الباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ورقمه ٥٥٠. وانظر: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ٤٩.. ٧٠.

٢- انظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ج ١٥، ص ٣٦٩. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الكتاب الحديث، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ج ٣، ص ١٢٦٠.

في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب فإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر] [١]، وفق منظومة دعوية وتربوية وتعليمية وتثقيفية وتكوينية ولغوية وأدبية وحوارية وفنية وإعلامية.. متميزة، ولا مثيل لها بين سائر المناهج والمشاريع والخطابات التي تزخر بها الساحة المعرفية اليوم[٢].

ولم يختلف أمر العلم ومكانته وسائر مشمولاته في تألق وصعود المدنيات الحديثة والمعاصرة أيضا، التي رادت وسادت وسيطرت على مفاصل الحياة العالمية المادية والمعنوية اليوم، حيث تعد الباحثة «نسمة أحمد البطريق»[٣] الكلمة المكتوبة والقراءة الواعية المستنيرة أهم وسائل التعبير والممارسة الديمقراطية [٤] الفكرية والثقافية للدور القيادي لها في تاريخ الثقافة

١- أخرجه أبو داود ٣٦٤١، وابن ماجة ١٢٢٣، وأحمد في مسنده ١٩٦/٥، والدارمي ٣٤٢..

٢- انظر: بشير عبد الله المساري، لغة الخطاب الدعوي، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٤٣، جمادى الأولى ١٤٣٢هـ. وأيضا عبد الله الزبير عبد الرحمن، دعوة الجماهير مكونات الخطاب ووسائل التسديد، كتاب الأمة، قطر، عدد ٧٦، ربيع الأول ١٤٢١هـ.

٣- انظر: نسمة أحمد البطريق، التلفزيون والمجتمع والهوية الثقافية - دراسة نقدية -، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص ٨، نقلا عن:- سامية جفال، الثقافة الإسلامية في الصحافة العربية في ظل العولمة - دراسة تحليلية -، رسالة دكتوراة في الدعوة والإعلام والاتصال، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الله بوجلال، كلية أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام والاتصال، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص ١٦٤.

٤- تختلف الديمقراطية في المفهوم الغربي عن الديمقراطيات العربية، إذ الديمقراطية الغربية تؤمن بالحرية المطلقة لحقوق الإنسان، وهو ما يختلف عنها في المنظور العربي والإسلامي، حيث تراعي خصوصيات المجتمعات العربية ودينها وقيمها وعادات، وتتوقف عند مفاهيم كثيرة كحقوق وحريات وحدود الإنسان والمرأة والعبادة واختيار الدين والارتداد عنه.. ولكل هذه القضايا وغيرها مفاهيم عربية وإسلامية خاصة، وتلتقي الديمقراطية مع الإسلام في الشورى والحرية والحقوق واحترام آدمية وإنسانية الإنسان، ولكن الإسلام منهج رباني شمولي مغاير عنها وعن غيرها، ومن هنا وجب التنبيه فقط على وجوب فصل المشروع الإسلامي عن غيره من المشاريع الأخرى.- انظر: عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٢، ذو القعدة ١٤٣٣هـ، ص ٨٦، موقف مالك بن نبي من الديمقراطية الإسلامية والديمقراطية العلمانية.

الإنسانية، وما تزال هي الأداة في يد الطبقة المثقفة المفكرة للتعبير وإبداء الرأي في العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي..

فهي وسيلة التغيير الثَبْتَةِ والرصينة والعميقة والمؤثرة في بنى الفرد الذاتية، وهي الوحيدة القادرة على تشكيل وصياغة بنيته الشمولية كلها: التصورية، والوجدانية والسلوكية والنفسية والأخلاقية والتكوينية والاقتدارية.. ضمن مكونه النفسي الذاتي أولا، ثم في إطار النسق الجمعي المتنوع والمنسجم ثانيا، ثم مع عناصر ومعطيات بيئته وظروفه وكيانه الاجتماعي العام ثالثا، بحيث يتهيأ منه فردا سويا متزنا منسجما مع سائر الدوائر الاتصالية التي يتحرك ضمنها وخلالها. ولذلك يُعد التغيير بالمعرفة والقراءة بابا مهما ورئيسا، بل وحيدا للتغيير الصحيح والناجح.

- **التغيير بالمعرفة:**

وعماد التغيير وأساسه الرصين في الإسلام: التغيير بالمعرفة الصحيحة، كما هو أمر المحجتين البيضاوتين «الكتاب والسنة»، وهو عماد التغيير في المنهج النبوي الكريم، الذي أُمرنا أن نقتفي سنته عليه الصلاة والسلام حذو القذة بالقذة، حيث تبدأ عملية التغيير بالمنظور الإسلامي، بالعلم والقراءة والاطلاع على المعرفة والحقيقة، ولذا فقد كان ﷺ تارة يُعَلِمُ أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بمبادرة منه لوحده، وتارة يسأل أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وتارة يجيب على تساؤلاتهم، حيث تتم عملية التغيير بالمعرفة الإشكالية المُحيرة والمُشككة للعقل الجاهلي الفاسد، وبسط التساؤلات الفكرية والمنهجية والتصورية اللازمة في العملية، ففي قوله ﷺ: [أتدرون من المفلس ؟]، إجابة على إشكالية معرفية واصطلاحية ومفاهيمية كبيرة جدا، حيث أفرغ رسول الله ﷺ مفهوم الإفلاس من معناه الجاهلي الشائع والعام، واستبدله بمفهوم إسلامي آخر، وفي مثل قوله ﷺ: [أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم] (أخرجه مسلم).

وهنا شكل من أشكال التعليم الإشكالي في منهجه ﷺ، وجعل الخيرية في التعلم وحصرها في التعليم في قوله ﷺ: [خيركم من تعلم القرآن وعلمه][1]، ولنا في منهجه ﷺ النماذج الكثيرة والمعبرة عن هذا التوجه النبوي، منها:[2]

١ - قوله ﷺ: [ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثا - الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور أو قول الزور]، «وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت». [3]

٢ - قوله ﷺ لذلك الرجل الذي جاءه من أهل نجد ثائر الرأس.. حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: [خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل علي غيرهن ؟ قال: «لا، إلاّ أن تطوَّعَ، وصيام شهر رمضان»، فقال: هل علي غيره ؟ فقال: «لا، إلاّ أن تطوَّعَ»، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها ؟ قال: « لا، إلاّ أن تطوَّعَ». قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أُنقص منه، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق»]. [4]

٣ - قوله ﷺ محذرا من عدم الانتفاع من العلم والقراءة، كما حصل لليهود والنصارى الذين ذمهم الله تعالى فقال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ

١- الحديث أخرجه البخاري. وانظر أيضا: راشد علي عيسى، مهارات الاتصال، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٠٣، رمضان ١٤٢٥هـ.

٢- أخرجه البخاري. انظر: مصادر السيرة النبوية المطهرة والصحاح والسنن والمسانية والمستدركات والطبقات والأعلام والرجال وكتب التاريخ والمغازي.

٣- متفق عليه، البخاري رقم ٥٩١٨، مسلم ٢٦٩، وأخرجه غيرهما.

٤- الحديث يرويه الصحابي طلحة بن عبيد الله، وقد أخرجه البخاري رقم ٤٦، ومسلم ١٠٩، واللفظ لمسلم.

﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة: ٥): فعن الإمام أحمد رحمه الله قال: [ذكر النبي ﷺ شيئا فقال: «وذاك عند أوان ذهاب العلم».. قال قلنا: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونُقرئه أبناءنا، ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟»]. [1]

فالمسألة ليست في القراءة فقط، بل بمدى الانتفاع الصحيح والمباشر والنافع والخيِّر منها، مصداقا لما ذهب إليه الشيخ عمر عبيد حسنة وهو يبين كيفية القراءة والهدف منها، فقال: «.. «فنحن كنا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب، كما كان الحال عند مجيء النبوة، فلما أحسنا التعليم والتعلم وأحسنا القراءة الهادفة كنا خير أمة أُخرجت للناس في مجال البناء والعطاء والشهود الحضاري.. ذلك عندما عرفنا كيف نقرأ، ولماذا نقرأ، وكنا نقرأ لنتعلم، لا نتعلم لنقرأ، كما هو الحال اليوم، وكان شعار القراءة: القراءة باسم الله الأكرم، بكل ما تحمل تلك القراءة باسم الله من دلالات وأهداف وتوظيف العلم للتنمية والارتقاء، وكان التخوف الدائم من أن تتحول القراءة عن أهدافها في الخير والعدل والسلم والرحمة إلى نوع من البغي الذي تسانده المعرفة، ذلك أن الكثير من الإنتاج العلمي اليوم يتمركز في تنمية أشياء الإنسان على حساب الإنسان، بل الإمكان القول: إنه يتمركز في معظمه على التكنولوجيا التي تمكّن من الهيمنة والغلبة والسيطرة والتسلط. فالعلم إن لم يُربط بمرجعية قيمية وأهداف إنسانية يتحول إلى ظلم وبغي وتفرق وتخلف وكهانات، حتى في المجال الديني، قال

١- أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وابن ماجة في سننه والترمذي أيضا. والآيات تترى في هذا القبيل ففي سورة آل عمران ذم لهذا الصنف: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران-: ٧٨).

تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (الشورى: ١٤).. لذلك كان من دعاء الرسول ﷺ، ومن يسير على قدم النبوة من بعده: «أللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» (أخرجه مسلم)»[١].

والسنة النبوية زاخرة بمثل هذه القواعد الذهبية المعرفية التربوية، التي ينتظم فيها سلك المعرفة الدريِّ وحالات وتارات الأخذ والطلب بين العالم والمتعلم، حتى عدَّت الحضارة الإسلامية أن العلم رحمٌ بين أهله، ولقوله ﷺ: [إن الله لم يبعثني مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا ولكن بعثني مُعلِمًا مُّيسرا] (أخرجه مسلم).. وتاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، بدءا من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرون المتأخرة، صفحات مشرقة في هذا الجانب أيضا، وما ترك الجاحظ والأصمعي والفراء والماوردي وابن رجب والعز بن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم والسيوطي وابن جماعة والعلموي وغيرهم.. قواعد خالدة في هذا الشأن. [٢]

وقد اضطلع رسول الله ﷺ بهذه المهمة التعليمية والتربوية خير اضطلاع، بل عدها المولى تبارك وتعالى من أخص وأهم وأبرز وظائفه النبوية عليه الصلاة والسلام، والتي تركها بدوره وأورثها العلماء حين قال في الحديث المشهور: [.. العلماء ورثة الأنبياء..]. [٣]

١- من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب الأستاذ: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ١٨ و ١٩.

٢- انظر: أحمد شلبي، الفكر الإسلامي منابعه وآثاره، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٦م.

٣- أخرجه أبو داود ٣٦٤١، وابن ماجة ١٢٢٣، وأحمد في مسنده ١٩٦/٥، والدارمي ٣٤٢..

- وظيفة الرسول التغيير بالمعرفة:

امتن الله على رسوله الكريم بالكثير من الصفات والمزايا التي جبلها فيه ﷺ، ولعل مدحه بالخلق الكريم حين قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤) كان ضمن سياقِ تعدادِ نعمه عليه ﷺ، حيث وصفه الله سبحانه وتعالى بأوصاف التمايز المثالية في العديد من المواقع القرآنية، ومن جماعها وانسجامها وتفاعلها الإيجابي نتبين وظيفته التغييرية ﷺ، فالرسول ﷺ هو: [الشاهد، والمبشر، والصادق الوعد الأمين، والنذير، والمبلغ، والمعلم، والقارىء، والمزكي، وذو الخلق العظيم، واللين الهين السهل اليسير]، لا [بالفظ، ولا بالغليظ، ولا بغيرها من صفات السوء]، حسب الحشد الضخم من الآيات الشاهدات من الله سبحانه وتعالى في حقه، ولكنه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢) حدد جملة من معالم ومواصفاته ﷺ،[١] هي:

١ - الوعي الرسالي في التوجه الكلي والفاعل نحو وسطه ومجتمعه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، فمدحه بأنه يدرك مناطات مهامه الرسالية في أمته الأمية، أمية حرفية، أو أمية ثقافية، أو أي شكل من أشكال الأمية، ويعلم أن ذلك من وظائفه ومهامه شكلا وعملا ومضمونا وروحا في أمته الأمية.

٢ - اضطلاعه ﷺ بالمهمة الأولى للأنبياء والمرسلين، وهي مهمة التلاوة والتذكير والتنبيه لآيات الله سبحانه وتعالى وتعاليمه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾، فهو يتلو تعاليم الله وُيَذِّكرُ الناس بها، لقوله ﷺ لقارىء

١- انظر: محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، دار الشهاب، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ١٣.. وحسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ٤٥.

القرآن: [اِقرأ َوارتقِ] (أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح).

٣ – اضطلاعه ﷺ بمهمة تزكية قومه، وتنمية عقولهم، والرقي بأفكارهم وتصوراتهم، والنهضة بمشاعرهم وأحاسيسهم ووجدانهم، والسمو بسلوكاتهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾، فهو الذي ينمي ويزكي قومه.

٤ – اضطلاعه ﷺ بتعليم قومه العلوم، علوم الدين المجموعة في كتاب الله تعالى، وفي سنته ﷺ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، ولقوله ﷺ: [إنما بُعثت معلما] (أخرجه ابن ماجة).

٥ – اضطلاعه ﷺ بتعليم قومه وتبصيرهم بالحكمة، التي هي نتاج الوحي المعصوم، ونتاج الخبرة والتراكم الثقافي الأفقي والعمودي المحلي والعالمي، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، لكي يضمن استمرار عصمة أمته من الضلال والانحراف والانهيار.

وعليه، يمكن تحديد بعض مهامه ﷺ من خلال هذه المواصفات القرآنية، وهي: (١ – الوعي الرسالي الفاعل، ٢ – الانتماء الاجتماعي والثقافي واللغوي لأمته، ٣ – التلاوة، ٤ – التربية، ٥ – التعليم، ٦ – الحكمة.). فهو قدوة المثقفين والمعلمين والمدرسين والمربين، حين قال الله تعالى في حقه: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥١).[1]

ومن الوظيفة النبوية المتميزة في التغيير المعرفي الصادق واليقيني

١– وقد تتالت هاته الصفات في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٩)، وفي قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

نحو الأصلح والأفضل في الدنيا والآخرة، ومن الممارسة الإنسانية المكرمة لفعل القراءة والمطالعة الواجب استثمارها وممارستها باعتياد، ومن الانضباط المرجعي في حسن تدبير ساعات الحياة وحكمة استثمارها، ومن حساب دقات العمر حسابا دعويا فاعلا فيما ينفع ويفيد معرفيا، تتبدى لنا منافع القراءة[1].

- المنهجية العربية الإسلامية للمعرفة:

والباحث المتتبع للتراث العلمي والمعرفي الحضاري العربي الإسلامي خلال قرون العطاء والإبداع [١ هـ - ٥ هـ]، وحتى خلال قرون التقليد والسكون أيضا [٦ هـ - ١٢ هـ]، والموروث عن عهود الازدهار في الشرق والأندلس، يتبين أن المدرسة الإسلامية خلفت وراءها تراثا معرفيا متميزا، تجاوز كل المتوقع، حتى خاض في مسائل المنهجية والتوثيق والإحالة العلمية، فَكُتُبُ ومصنفات المناهج البحثية التراثية الضابطة لحركية التأليف والبحث وسائر أدبياتها وتقاليدها المتعارف عليها بين أهل الاختصاص كانت - ومازالت - تزخر بها المكتبة العربية والإسلامية باللغة العربية وبشتى لغات الأمم الإسلامية الأخرى [الفارسية، الأوردية، الأمازيغية، التركية، الطاجيكية، البشتوية، البنجابية..]، وفيها قُعِّدت ضوابط وأوعية ومنهجية حركية التأليف والبحث العلمي لمختلف العلوم الدينية والإنسانية والعلمية الدقيقة معا.

فعلى سبيل المثال فقد ترك لنا عبد الباسط بن موسى العلموي الدمشقي (ت ٩٨١هـ- ١٥٣٧م) كتابه الشهير (المعيد في أدب المفيد والمستفيد)

١- صنف المرحوم الدكتور «إبراهيم الفقي» سلسة من المؤلفات الخفيفة السهلة العظيمة النفع في مسائل القراءة والمطالعة السريعة والكثيفة وغيرها.. يستحسن أن يطلع عليه طلاب العلم المقبلين على مشروع المطالعة الشخصية. انظر مثلا: إدارة الوقت، دار إبداع للإعلام والنشر، القاهرة، دون طبعة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م. والبرمجة اللغوية العصبية وفن الاتصال اللامحدود، مكتبة المدينة علم ومعرفة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م. والطريق إلى الامتياز، دار الراية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م. وقوة الفكر، دار الراية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

في منهجية البحث العلمي، ومثله أيضا البدر الغزي (ت ١٥٧٧م) صاحب كتاب (الدر النضيد)، وابن جماعة (ت ١٢٧٣م) صاحب كتاب (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم)، والحسين بن القاسم المنصور (ت ١٦٤٠م) صاحب كتاب (آداب العلماء والمتعلمين)، وغيرهم كثير ممن وضع كتبا في منهجية البحث والتصنيف والتأليف، وفي سر صناعة الكتابة[١].

والناظر المتوسم فيها يتبين له أن هذا تراث متميز وخاص بالحضارة العربية الإسلامية في عالم القراءة والمطالعة والمقروئية والكتاب.. وبالإضافة إلى ذلك فقد ضبط هؤلاء المصنفون منهجيتهم البحثية فيما يتعلق بالمخطوطات ونظامها، وبآداب النسخ وتقاليده، وبآداب الإعارة والاستعارة، والحفظ والاقتناء، وبمنهجية التأليف وأخلاقياته الذاتية والموضوعية، وبمناهجه العلمية، والرموز المختصرة لأسماء العلماء والفقهاء والرواة والمحدثين والرجال والأعلام، والكتب والمصنفات والمعاجم والفهارس، كما قعّدوا لمنهجية النقد والتصحيح والتصحيف والتعليق والتعقيب، وضبطوا الفهرسة والجدولة والبيبليوغرافيا، وأصّلوا للترجمة والنقل والاقتباس..[٢]، وظلوا كذلك حتى احتكوا بالمدنية الغربية حديثا، فتأثروا بها سلبا وإيجابا.

١- لمزيد من الاطلاع انظر: فرانتز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة:- أنيس- فريحة، مراجعة: وليد عرفات، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦١م، ص ٢٨.. وسبق أن تعرضنا لمثل هؤلاء المصنفين ولمصنفاتهم.

٢- انظر: فرانتز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ص ٢٨.. وقصص المكتبات وحملها والتباهي بها والتنقل بها واعتبارها كصكوك الضمان وبيعها ووراثتها والإنفاق منها وعليها قصص كثيرة وطريفة نقلها الكتاب أمثال ما نقله الجاحظ في البيان والتبيين والحيوان، والمبرد في الكامل، والقلقشندي في صبح الأعشى وصناعة الإنشا، والنتويري في نهاية الأرب بلوغ الأدب، والأبشيهي في المستطرف من كل فن مستظرف.. وقصة أبي الطيب المتنبي مع فاتك بن جهم الأسدي الذي قتله وأخذ مكتبته المحولة منه مشهورة.

- **منافع القراءة التغييرية:**

منافع القراءة عديدة وكثيرة وواسعة وشاملة وأكبر من أن تُحصى أو تُعدُّ، وقد صنف الكتاب والباحثون المؤلفات الكثيرة والكبيرة جدا في «علم المعرفة»، وتفرعت عنه فروع وتخصصات علمية مثل «علم الاجتماع المعرفي»، و«علم النفسي المعرفي»، و«علم النفس التربوي» و«تقنيات القراءة» و«تقنيات التعبير» «وتقنيات الخطاب» و«تقنيات التواصل والاتصال» و«تقنيات التغيير الاجتماعي».. ومع كل هذا وذاك فلن نعدم أن نرسم جملة من المنافع العامة للقراءة، لأن القارىء المواظب على ممارسة هذا الفعل المكرم شخص سعيد جدا، وذو نفسية متفائلة جدا، وشخصية متماسكة وقوية ومنطلقة ومبادرة، تمتلك إحساسا خلاقا وشعورا حماسيا ملتهبا، وطاقات مبدعة لا نظير لها، تسحر من حولها بشلالات تألقاتها المعرفية والعلمية والفكرية، وتتجاوز مستوى ونطاق كل من يدور في فلكها أو خارجه، حيث تملك من الثقة الزائدة واليقين الثابت أكثر مما عند الآخرين، وذلك بسبب التفاوت بينه وبين الشخص الذي لا يمارس القراءة، حيث هو يقرأ، ويطالع، ويفكر، ويتعلم، ويتوسم، ويدمن النظر، ويحلل، وغيره يفترسه الخمول والسلبية والجمود[1].

وللقراءة فوائد صحية جليلة، ومنافع عضوية جسدية وبيولوجية، حيث تتعدى تدخل تأثيراتها في كهرباء الجسد والقلب والمخ، وتتحكم بشكل مؤثر وفعال في فيزيائية العقل وسائر القوى العاقلة والمفكرة في الإنسان، وقد كشفت الدراسات المخبرية التي أُجريت في الغرب على الأشخاص المدمنين لفعل القراءة بشكل يومي أنهم محاطون بهالات من الأحزمة الضوئية، وبأحزمة من الإشعاعات المشابهة لألوان الطيف السبعة، وبملايين من الإشعاعات الضوئية[2].

١- مواقع إلكترونية تهتم بتأثير الجانب الفزيولوجي للقراءة، تاريخ الزيارة ٢٠١٣/٠٦/١٦م.

٢- المرجع نفسه.

وبينت الدراسات المخبرية أيضا أن القراءة لها منافعها على الدماغ، ولاسيما المنطقة الرمادية التي تتحكم في سائر العمليات العقلية والذهنية والإدراكية، فضلا عن دورها الفعال في زيادة نسبة الذكاء بمختلف أنواعه: الطبيعي والانفعالي والموضوعي والخارق..[١].

كما بينت الدراسات أيضا أن ممارسة ساعة من القراءة يوميا وبشكل اعتيادي يعني: تنشيط الدماغ وتحريكه من خموله وجموده، كما يعني تغذيته ومده بالغذاء الضروري والأساسي له في ممارسة مهامه في الحياة، والرفع من حيويته ونشاطه[٢].

وقد تبين أيضا أن الكسل والخمول الاعتيادي، إنما يتأتى من العزوف عن القراءة والمطالعة، وممارسة الفاعلية الإدراكية اللازمة والضرورية للدماغ، الذي يتحول بدوره إلى كسل وخمول مرضي مزمن وملازم للفرد والجماعة، لأن القراءة في صميمها فعل ذاتي وجمعي واجتماعي معا، فنحن حينما نقرأ فإننا لا نقرأ لأنفسنا فقط، بل نقرأ لأنفسنا وللجماعات والمجموعات التي نتحرك ضمن أنساقها، لتتبين آثار القراءة علينا، وهي صميم قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى: ١١)، إنه حديث الجوارح الحية والأعضاء النشيطة الفاعلة المفعمة بالحيوية والانطلاق.

وقد كشفت تلك الدراسات أن سبب تأخر الأمم المتخلفة عن الركب العالمي يعود إلى تراجع نسبة المقروئية عند طاقاتها الحية عموما، وعند نخبها المستنيرة والرائدة خصوصا.

وللقراءة منافع أخرى تربوية وتعليمية وأخلاقية وسلوكية واتصالية ووجدانية.. ولعل أهمها:

١- مواقع إلكترونية تهتم بتأثير الجانب الفزيولوجي للقراءة، تاريخ الزيارة ٢٠١٣/٠٦/١٦م.

٢- المرجع نفسه.

١ - فهم المسائل والاستواء عليها:

خلّف لنا التراث الحضاري الإسلامي تراكما خبراتيا كبيرا في مسألة إدامة النظر والتوسم في المسائل عبر القراءة المتأنية والواعية والعميقة، والرحلة الطويلة والشاقة في طلب العلم، وقد صنف علماء الإسلام في هذه المسألة ونقلوا لنا تجاربهم المحفوظة فيها وهي كثيرة، ولعلنا ننقل مثالا موجزا عن سيرة واحد من هؤلاء العظام، فعبد الرحمن ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) في كتابه القيم «صيد الخاطر» يتحدث عن منهجه في أدب الطلب، فكان إذا زاره أحد من هؤلاء، ممن لا خير فيهم وفي أحاديثهم، والتي كانت كلها غيبة ونميمة وتفكها، أعرض عنهم بطريقته المؤدبة، ولم يجارهم في تفاهاتهم تلك، بحيث يجلس معهم بجسده وهو منشغل عنهم في بعض الأعمال الخفيفة التي لا تحتاج إلى تركيز وخلوة وصفوة وصمت، وهو يقوم بذلك العمل ويتصنع سماعهم، حتى يفرغ ما عندهم، ويحسون أخيرا بانشغاله عنهم فينصرفون.

وكان منهجه منهجا صارما على نفسه وعلى الآخرين المحيطين به والمتعاملين معه، لاسيما أنه يعيش في مجتمع كثر فيه المترفون والتافهون والمتفكهون... ومما قاله: [.. ولقد رأيت خلقا كثيرا يجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني، وما يتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس... فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان، فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك... وانشغلت عنهم بإعداد الكاغد وبري الأقلام، فأرصدت هذا العمل لأوقات زياراتهم لئلا يضيع شيء من وقتي..].[١]

١- انظر: عبد الرحمن بن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق الشيخ محمد الغزالي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص ٢٢٧ و ٢٢٨.

وقد حكى يرحمه الله عن طفولته، فقد تربى تربية مترفة نأت به عن ممارسة أي نوع من أنـواع الأعمال الخشنة، كما عاش في بحبوحة من العيش، ولم يعرف شظف الحياة وشدتها، فقال: [.. فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف في أمره إذا أمكنه، وقد عرفت هذا من نفسي، فإني ربيت في ترف، فلما ابتدأت في التقليل وهجر المشتهى، أثر معي مرضا قطعني عن كثير من التعبد، حتى أني قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن، فتناولت ما لا يصلح، فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها، فقلت: إن لقمة تؤثر في قراءة خمسة أجزاء، بكل حرف عشر حسنات إن تناولتها لطاعة عظيمة، وأن مطعما يؤذي البدن فيفوته فعل خير فينبغي أن يهجر.. فالعاقل يعطي بدنه من الغذاء ما يوافقه][1].

كما تحدث عن عزيمته في طلب العلم، فقد كان في طفولته مجدا في طلب العلم، منكبا على تحصيله، يستعذب كل صعب في سبيله، ولا يضيع أوقاته في اللهو أو اللغو أو المزاح أو غيره.. حتى وصل به الأمر إلى تناول وجبة طعام خفيفة حرصا على لقاء الشيوخ والأخذ منهم[2].

وقد اشتهر في زمن طلبه للعلم في طفولته وبداية شبابه بكثرة سماع الحديث وسيرة رسول الله ﷺ وشمائله، وجديته في معرفة أحوال أصحابه والتابعين، وقد أثرت هذه المعرفة السوية في استقامة سلوكه، ومراقبته لربه تعالى، حتى قال عن نفسه في هذا المجال: [.. ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجوه، كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلاّ عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها..][3].

١- انظر: عبد الرحمن بن الجوزي، صيد الخاطر، ص ٤٤٦.

٢- المرجع نفسه، ص ٣٧.

٣- المرجع نفسه، ص ٣٧.

وقد هام بفنون العلم كلها منذ طفولته، وكان يريد التبحر في كل العلوم، ولكن العمر قصير والصناعة طويلة، وقد قال عن نفسه: [.. إني رجل حبب إلي العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحبب إلي فن واحد، بل فنونه كلها، ثم لا تقتصر همتي في فن على بعضه، بل أروم استقصاءه، والزمان لا يتسع، والعمر ضيق..][1].

والملاحظ على طفولة هذا العالم وشبابه ما يلي:

١ – تفانيه وانقطاعه المتميز على طلب العلم بمختلف فنونه.

٢ – استغلاله لظروفه وأوضاعه وانقطاعه الجدي لطلب العلم.

٣ – صلابة وسعة تكوينه في سائر العلوم.

٤ – عدم إضاعة الوقت إلاّ في طلب العلم والتعليم والوعظ والإرشاد.

٥ – مكتبة علمية تجاوزت أكثر من ثلاثمائة وبضع وستين كتابا [٣٦٣].

وكان للأئمة الأعلام أمثال العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن حجر والذهبي وابن عرفة والورغمي والونشريسي والأبِّي والحطاب والزركشي والسيوطي تجارب مماثلة أو مشابهة أو مختلفة[2].

١– انظر: عبد الرحمن بن الجوزي، صيد الخاطر، ص ٣٧.

٢– الدارس لأدب الرحلة في الثقافة العربية الإسلامية يتبين الكثير من وصف الرحالة المسلمين للمدن التي زاروها أو مروا بها فوصفوا عمرانها ومساجدها العامرة بأهل، كما ذموا المدن والبلاد التي مروا بها ووجدوها عطلا من العلم.. انظر: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م. ومحمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية – ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق، تحقيق الأستاذ أحمد بن جدو– نشر كلية الآداب، الجزائر، مطبعة دار البعث، قسنطينة، دون طبعة، دون تاريخ. ورحلة ابن بطوطة، من مقدمة الدكتور جمال الدين الرمادي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ. ورحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م. ومولاي باي الحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٨١م. ومحمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق: على الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٣٩١هـ ١٩٧٦م. رحلة الورتيلاني، المشهورة بـ (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب، طبع الجزائر، ١٩٠٨م.

ثم إن إدامة النظر والتوسم في المسائل من أجل منافع القراءة، التي تنعكس على صاحبها بالتغيير، فقد ذكر الكاتب والمفكر الفرنسي المعاصر (جورج ديهاميل- George Dohamel) منافع القراءة في هضم المسائل وفهمها والاستواء عليها، فقال: «.. إن أساس الثقافة هو فهم الظواهر والكتب والكائنات والنفوس. حتى الناقد الموهوب هو عرضة دائما للتردد والذهول والإغماء، وعلى الرغم من كونه أقدر الناس على الانتباه والملاحظة، فهو بحاجة ماسة ودائما للرجوع إلى الموضوع المطروق وإلى عناصره الأساسية، وهذا الرجوع الذي يُقصد منه دقة الفهم هو على وجه التحديد ما نسميه بالتفكير. فالرجل الذي يقرأ يقف في كل حين ليفكر، أي ليحاول أن يعود فيتناول الفقرة من جديد فيقرؤها مرة ثانية وثالثة ورابعة بل وعاشرة، وهذه الطريقة لا تتفق وفنون الحركة، فإننا عندما نسمع «سيمفونية» أو نشاهد تمثيل «تراجيديا» لا نستطيع أن نعود إليها، على حين أن الكتاب يمكننا من التفكير تفكيرا ضروريا وإن يكن لاحقا..» [1].

وهضم المسائل وفهمها والاستواء عليها بدقة هو - بلا شك - أول خطوات التغيير المنشودة، وأسس العقل النقدي والتحليلي والتركيبي الحضاري.

٢ - الامتداد عبر الزمان والمكان:

يقول الراحل عباس محمود العقاد (ت ١٣٨٥هـ ١٩٦٤م) عن فلسفته ورؤيته للقراءة: «.. لست أهوى القراءة لأكتب، ولا لأزداد عمرا في تقدير الحساب، وإنما أهوى القراءة لأن لي في هذه الدنيا حياة واحدة، وحياة

١- انظر: عبد العزيز شرف، وسائل الإعلام ومشكلة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص ٢٣ و ٢٤. نقلا عن: سامية جفال، الثقافة الإسلامية في الصحافة العربية في ظل العولمة - دراسة تحليلية -، رسالة دكتوراة في الدعوة والإعلام والاتصال، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الله بوجلال، كلية أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام والاتصال، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص ١٦٤ و ١٦٥. وقد كنت عضوا رئيسيا مناقشا في هذه الرسالة العلمية.

واحدة لا تكفيني، ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة، القراءة هي التي تعطي الإنسان الواحد أكثر من حياة واحدة، لأنها تزيد هذه الحياة عمقا، وإن كانت لا تطيلها بمقدار الحساب.. فكرتك أنت فكرة واحد، شعورك أنت شعور واحد، خيالك أنت خيال فرد واحد إذا قصرته عليك، ولكن إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى، ولاقيت بشعورك شعورا آخر، ولاقيت بخيالك خيال غيرك، فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين، وأن الشعور يصبح شعورين، وأن الخيال يصبح خيالين.. كلا وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات الفكر في القوة والعمق والامتداد..»[1].

ولسيد قطب (ت ١٩٦٦م) وسعيد حوى (ت ١٩٨٧م) ونجيب الكيلاني (ت ٢٠٠٥م) وغيرهم.. كلام مشابه للعقاد عندما يتحدثون عن عالم الأفكار والكتابة واللغة والأدب، فهم يرون امتداد حياتهم في الماضي والحاضر والمستقبل عندما يرتبطون بالفكرة العظيمة.. فالقراءة عند العقاد محصلة تفاعل فكره ومعارفه ووجدانه وخياله مع فكر ومعارف ووجدان وخيال غيره، وما كان ليأتيه هذا التمدد لولا ممارسة فعل القراءة والمطالعة المستمرة..[2]

٣ - المتعة:

لاتضمن القراءة التحليلية النقدية العميقة لصاحبها الامتداد الزماني والمكاني فقط، بل تؤمن له كل أشكال المتعة والترفيه والتسلية، وقد أسهب

١- انظر: عباس محمود العقاد، ساعات بين الكتب: نقلا عن: محمد عدنان سالم، القراءة أولا، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، ص ٣٨ و ٣٩.-

٢- لسيد قطب العشرات من المؤلفات التي طالعها واستقى منها جيلي في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي وهي أكبر من أن نوثقها، وللمرحوم الداعية سعيد حوى العدد الكبير من المؤلفات كان قد لخصحا كلها في مذكراته «هذه تجربتي وهذه شهادتي»، أما الأديب الطبيب المرحوم نجيب الكيلاني أحد مؤسسي نظرية الأدب الإسلامي فله الحشد الكبير من الروايات والقصص والتصانيف التنظيرية التي تأدب عليها جيلي.

«الجاحظ»[1] وغيره من أدباء العربية – في الكثير من مصنفاته: [البخلاء، البيان والتبيين، المحاسن والأضداد، والتاج، والحيوان..] في تناول متعة القراءة، وما ينجر عنها من ترفيه وتسلية وُظرْف ونَكْت، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ البشير آيت سليمان في القراءة: «قراءة الكتب متعة وهواية، غايتها الحكمة والتقوى والفائدة، يقول أحد الفلاسفة الغربيين: «إن صداقة الكتب أفضل من صداقة الناس، فهي لا تتكلم إلاّ عندما نريد نحن، وتسكت عندما يكون هناك ما يشغلنا، إنها تعطي دائما ولا تطلب أبدا».. الكتاب هو إذن المعلم بلا عصا، يدرسك بلا غضب، ويربيك بلا مقابل، وإن دنوت منه لا تجده نائما، وإن قصدته لا يختبىء منك، وإن أخطأت لا يوبخك، وإن أظهرت جهلك لا يسخر منك، وإذا اشتغلت به اشتغل هو بك وبعقلك، فكان خير من يتملك عقلك بعد أن تتملك أنت صفحاته وأوراقه.. وقديما قيل: «إن من يملك كتبا كثيرة، ولم يقرأ منها شيئا شأنه شأن البخيل والكنز الذي جمعه، فالكتاب الواحد قد يعطيك من العطايا ما لا تعطيك عشرات الكتب التي تكتنز دون أن تتصفح واحداً منها». [2]

وقد كانت الأجيال العربية والإسلامية قبيل الغزو المرعب لوسائط ووسائل الموجة الإلكترونية الخامسة تعتبر القراءة والمطالعة أحد أهم وسائل المتعة والترفيه والتسلية. والخزانة العربية والإسلامية زاخرة بمثل هذه المصنفات كمصنفات تسمى «عيون الأخبار» لابن أبي أصيبعة وابن قتيبة.. و«خريدة العصر وجريدة القصر» لابن بسام.. وغيرها..

١- انظر: طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، ص ٣٩٧.. ٤٣٥.

٢- انظر: البشير آيت سليمان، القراءة، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٦٢، جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ أبريل مايو ٢٠١٢م، ص ٩٥.

٤ - القوة والحفظ:

لا تقتصر منافع القراءة على ما سبق ذكره، بل تتعداها إلى تمتين وحفظ المكتوب، وفي هذا الصدد يقول أحمد فرحات : «.. إن الكلمة المكتوبة أقوى في تأثيرها من الكلمة المقرءة أو المسموعة، فالعلاقة بين الإنسان والقراءة عبر الورق علاقة تاريخية على مر الزمن، لا يمكن أن تُلغى أو تزول بمجرد ظهور وسيلة أخرى أو وسيلة منافسة، وستظل هذه العلاقة قائمة لن تتغير حيث لا يمكن للإنسان أن يستغني عن الكلمة المكتوبة.. كذلك متعة القراءة من بين الأشياء التي تحفظ للصحافة الورقية استمرارها في مجابهة أعتى الوسائل إثارة للذهن في ظل سهولة العودة والعمق في محتوياتها، ولا تزال قراءة النص المطبوع لها سحرها لدى القراء..»[1].

ففي البدء - كما قيل - كانت الكلمة (اللوغوس)، وفي الأخير كانت وستبقى الكلمة أيضا، المسموعة والمنطوقة والمكتوبة والمقرؤة، وهي طريق التنمية والنهضة.

٥ - التنمية:

القراءة الدائمة والمتنوعة والتحليلية العميقة تُنمي صاحبها وتكونه تكوينا معرفيا متنوعا ومتميزا، وتعود عليه بزيادة خبراته ومعارفه وتصوراته للمسائل والقضايا، التي هي الطريق الصحيح والسوي والمباشر لعملية التنمية الفردية والجمعية والاجتماعية، فإذا قرأ واستمر في القراءة، فستأخذ قراءاته تلك مسارتها الحقيقية في تواصلاته مع جماعاته التي يتحرك ويتواصل معها وضمنها، ومن ثم تنتقل ثمارها التنموية

١- انظر: المجلة المصرية لبحوث الإعلام، جامعة القاهرة، كلية الإعلام، عدد ١٣، سبتمبر ٢٠٠١م، ص- ٥٠ و ٥٢. نقلا عن:- سامية جفال، الثقافة الإسلامية في الصحافة العربية في ظل العولمة- دراسة تحليلية -، رسالة دكتوراة في الدعوة والإعلام والاتصال، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الله بوجلال، كلية أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام والاتصال، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص ١٦٩.

منه لجماعته، وتتفاعل مع تواصلات وقيم الجماعات الأخرى وبالتالي حصول التنمية الشاملة المرجوة المادية والمعنوية، والوعي هو الابن الشرعي والمنطلق الأساس للمطالعة والقراءة. و«.. بناء على ذلك، فإن هدف التنمية الإسلامية هو الإنسان، ولذا تكون العملية التنموية وسيلة غايتها تحقيق سعادة الإنسان المادية والمعنوية، تحقيقا ينسجم مع قصد الشارع من استخلافه في الأرض..»[1].

٦ - الهدفية:

يروي الدكتور «محمد أبو الفضل» أثناء زيارته لألمانيا سنة ١٩٧٦م رفقة أستاذه الداعية الكبير محمد تقي الدين الهلالي (ت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م) في كتابه القيم «تقي الدين الهلالي كما عرفته» بخصوص القراءة فيقول [2]: «.. وتعجبت من وجود الكتاب الإسلامي الحديثي في المكتبة الألمانية، وكنت أسرق بنظراتي في القاعة لعلي أرى طالبا زاغ بصره عن الكتاب وجال به في الحاضرين، فقلت في نفسي: هذه أمة لا تقرأ، ولكنها تقرأ، ونحن أمة إقرأ لا نقرأ»، فطلبتنا لا يقرأون إلاّ للامتحان فقط، وحتى القراءة للامتحان عرجاء، يمر الطالب على الكتب المعروضة في الأرض للبيع، فلا يكلف نفسه حتى تصفيفها، لأن الرغبة في القراءة منعدمة كليا، وأعرف بعض الأساتذة لا يوجد كتاب في بيته، وليس له فيه جناح، فقلت له: «لم أر عندك خزانة»، فقال لي: «وماذا أفعل بها ؟»، لأن شهادته العلمية كلف بها الطلبة هم الذين

١- انظر: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ٩٧.

٢- كان الأستاذ الداعية الكبير محمد تقي الدين الهلالي قد درس في جامعة «بن «بألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية، ونال درجة الدكتوراة في الدراسات الشرقية، ولما زار ألمانيا رغب في زيارة جامعته التي درس فيها ولقاء أساتذته هناك. وهو داعية إسلامي كبير عمل في المملكة العربية السعودية والعراق.. وانخرط في سلك المدرسين في الحرمين الشريفين، وعمل لدى الراحل المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود في شرطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. انظر مذكراته التي كتبها عنه تلميذه أبو الفضل.

جمعوا له المادة ثم خرصها فنال بها ما ناله، وهذا يذكرني بقول الدكتور: أن الكاتب الإنجليزي «برناردشو» يقول: «لا يمكن للمؤلف أن يُهدي الكتاب لأن المهدى له لا يقرأ، وبناء على هذه القناعة، فهو لا يُهدي كتابا بل يبيعه، لأن الرغبة في اقتناء الكتاب رغبة في قراءته..»[1].

وقد سقنا هذا المثل لنتبين أن الأمة التي تحمل رسالة وترسم هدفا بعينه في الحياة لا تضيع الوقت، كما كانت الأمة الإسلامية في سابق عهدها الزاهر، والأمة الصاعدة هي الأمة التي تحسن استثمار الزمن أحسن استثمار في التنمية المعرفية والقراءة والمطالعة، حيث هي السبيل الوحيد للفوز بالسعادتين الدنيوية والأخروية[2].

٧ - حل المشكلات:

وحل مشكلة المطالعة والمقروئية تندرج أساسا ضمن حل مشكلة أزمة التربية والتعليم القائمة في بلادنا العربية والإسلامية ولاسيما بعد موجة الاستعمار القديم والثقافي الحديث، والتي تندرج أساسا في حل أزمة التنمية والنهوض من العِثارِ الحضاري، وهو ما ذهب إليه الشيخ عمر عبيد حسنة في تشخيص هذه الأزمة حين قال: «فالمشكلة التنموية إذن تكمن في مناهج التعليم، وطرائق التعليم، وسياسة التعليم، ومؤسسات التعليم، ونوعية التعليم، وأهداف التعليم، فملف التعليم وديمومة النظر فيه وتطوير وسائله وإعادة النظر في سياساته وأهدافه، من أهم متطلبات التنمية، أما إذا

١- انظر: محمد أبو الفضل، تقي الدين الهلالي كما عرفته، منشورات إدكل، المغرب، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص ٧٩. وهو تلميذه ورفيقه مازال على قيد الحياة يعيش في الرباط بعد أن تقاعد، وقد أهداني صهره الأستاذ «عبد الإله عربي» كتابه نيابة عنه عند زيارتي للمغرب الشقيق شهر مارس ٢٠١٣م.

٢- انظر: فرانشيسكو خافيير كاريللو، مدن المعرفة: المداخل والخبرات والرؤى، ترجمة: خالد علي يوسف، مراجعة: عمرو عبد الرحمن طيبة، و محمد سيد محمد مرسي، كتاب عالم المعرفة، عدد ٣٨١، اكتوبر ٢٠١١م.

أصبح التعليم يعاني من غربة الزمان والمكان، ويعيش خلف المجتمع بعيدا عنه وعن مشكلاته، ويحاصر نفسه وحركته ضمن معطيات عقول أنتجت لعصر آخر ومشكلات أخرى مهما كانت متألقة ومبدعة، فلن يحقق نقلة نوعية.. ومهما تعددت واتسعت الجامعات فلا تخرج على أن تكون تكرارا للنسخة الواحدة.. والشيء المحزن حقا أن التخلف في عالمنا اليوم قد يتناسب عكسيا مع زيادة عدد الجامعات وانحسار الأمية؟»[1].

ومن هنا نتبين أن القراءة التحليلية النقدية المقارنة، وتحصيل المعرفة إنما هو الطريق الأوحد لحل المشكلات كلها، فحل المشكلتين هنا مقرون ببعضهما، فالقراءة تحل مشكلة التربية والتعليم، ومشكلة التربية والتعليم هي التي تحل أزمة المقروئية ومشكلتها.

٨ - حل مشكلات ثقافة مرحلة التخلف:

إن القراءة التحليلية النقدية العميقة لا تضمن فقط الوعي الدقيق بإنسان مرحلة التخلف فحسب، بل تنشئ وعيا حقيقيا وصادقا وواقعيا بنوعية الثقافة السائدة في مرحلة الخنوس الحضاري، إذ يمكننا وصف ثقافة المرحلة السائدة، التي نحاول التدافع معها بالقراءة المستمرة وبالمواصفات المعرفية التحليلية الدقيقة، والتي تضمن لنا الفكاك من إسارها، بأنها:

١ - ثقافة غلبة نزعة المديح والثناء والحمد والشكر الممل.

٢ - ثقافة غلبة نزعة التعلق بالماضي والتشظي معه.

٣ - ثقافة غلبة نزعة التسامي والاستعلاء والتفاخر بالماضي التليد.

٤ - ثقافة غلبة نزعة الشاعرية والأحلام والطوباوية والتعلق بالخيال.

٥ - ثقافة غلبة طابع الاعتزاز بالكم والحجم والشكل.

١- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر، عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ١٩.

٦ - ثقافة غلبة نزعة التجزيء والتفكيك والتفتيت، ومقولة: [فيها قولان].

٧ - ثقافة غلبة نزعة المظاهرية والشكلانية والاحتفالية والمهرجانية.

٨ - ثقافة العجز عن إدراك روح المدنية وحقيقة الحضارة الغربية، وغيرها من حضارات آسيا الناهضة اليوم.

٩ - ثقافة التعلق بمظاهر وشكلانية المدنية الغربية والتفكير في الحصول السهل على منتجاتها، وليس التفكير الجاد في محاولة إنتاجها وتصنيعها.

١٠- ثقافة عدم القدرة على التحكم في أدوات إنتاج المدنية وتسييرها والتحكم فيها، ثم التخلص من نفاياتها، في عصر الفيضان النفاياتي وغرق البشرية في مستنقع القذارات الكيمياوية والبيولوجية والنووية وغيرها من مخلفات الإنسان الحداثي.

وهذا كله لا يتأتى إلاّ بتعزيز ثقافة القراءة وممارسة تحصيل المعرفة.. ولاسيما إذا خضعت القراءة لتقنيات التحصيل السليم.

٩ - إمكانية صناعة المستقبل:

إن ممارسة الإنسان الواعي لفعل القراءة الاعتيادي تمكنه من تغيير الحاضر وصناعة المستقبل الزاهر. وهذه الصناعة التي تمر أساسا من التطلع إلى الماضي والتعرف عليه، ورصد التراكم الحضاري الجميل والسيء والمتعثر فيه، وذلك عبر القراءة والبحث في ثناياه بهدف معرفة سنن الله التي خلت في عباده، فهو الذي يُخبرنا تارة، ويوجهنا تارة، ويأمرنا تارة أخرى.. بضرورة التطلع الأصيل نحو أبعاد الزمن الثلاثية، التي هي بناءٌ مترابط الأركان والمكونات والثمرات والنتائج، حيث يقول منبها إيانا على أهمية معرفة الماضي لبناء الحاضر وتشييد المستقبل الزاهر: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ (محمد: ١٠).

فصناعة المستقبل تتم بفهم ومعرفة ووعي الماضي أولا، ثم بمحاولة صياغة الحاضر ثانيا، الذي هو بوابة المستقبل لأن: «.. فكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على أساس أن التاريخ فعل إنساني، إذ إنه نتاج لتفاعل الإنسان مع بيئته في إطار الزمان والمكان، كما أن التاريخ خير وسيلة لكشف ماهية الإنسان، ولذلك نجد المادة التاريخية في القرآن الكريم تحكي قصة الأقوام والحضارات التي شهدها تاريخ البشر عبر الزمن.. ومن خلال المادة التاريخية الواردة في القرآن الكريم يمكن الخروج بنتائج من دراسة التاريخ الإنساني.. وأن التغيير التاريخي لا يحدث فجأة، وإنما ينتج عن تراكم بطيء عبر الزمان للأسباب التي تؤدي إلى هذا التغيير..»[1].

وذلك من أجل حصول العبرة بالقصص القرآني لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: ١١١).

وعليه، فصياغة الحاضر وصناعة المستقبل تمر حتما عبر بوابة قراءة الماضي قراءة تحليلية نقدية، والوعي الصحيح والدقيق به، لأن الله تعالى منح الإنسان صناعة التاريخ والمسؤولية عن نتاج صناعته، التي حدثنا عنها في الكثير من المواضع القرآنية، فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (القصص: ٥٨)، وقوله تعالى في مآلات ومصارع الأمم الظالمة لنفسها: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (القصص: ٥٩)، وقوله تعالى حاثا الإنسان على البحث في الزمان والمكان: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا

١- انظر: قاسم عبده قاسم، إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي، رقم ٧٨، اكتوبر ٢٠٠٩، ص ٤٢ و ٤٣.

ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الروم: ٩)، فالفعل التاريخي في القرآن الكريم سببٌ له نتائجه، وسننٌ مطردة يتحدد بناءً عنها مصير الجماعة الإنسانية نموا ورقيا وازدهارا.. وتراجعا وتخلفا ودمارا.. وقد قرر الله ذلك سنةً وقانونا أزليا في القرآن حين قال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

ومن أين كان سيتأتى للإنسان إدراك كل هذا الماضي بتراكماته، وأحداثه المؤلمة، ومواقفه الجِسام، وعبره الجمة، وقصصه المتنوعة، ومشاهده الجميلة والمحزنة، ومواقعه المتعددة، ومنجزاته وعطاءاته.. لولا ممارسته لفعل القراءة المكرم الذي حثنا الله على ممارسته ما استطعنا إليه سبيلا.

١٠ - إمكانية السيطرة على الطبيعة:

القارىء التالي المتمعن في آيات وسور القرآن الكريم يتبدى له عيانا العدد الوفير من الآيات الدالة على تمكين الله للإنسان بالمواهب والقدرات والطاقات التي تؤهله للسيطرة على قوى الطبيعة، فضلا عن تسخير الله تعالى لكل المخلوقات لتكون في خدمة هذا الإنسان المكرم، مُشكلة بذلك التنزيل السنني قواعد وضوابط ثابتة وأساسية لعملية التفاعل بين الإنسان ومحيطه وأدواته عبر الزمن، فيما صاغه المفكر الإسلامي العالمي المرحوم مالك بن نبي (ت١٣٩٧هـ ١٩٧٣م) في نظريته الحضارية الشهيرة [1]: [إنسان + تراب + زمن = حضارة]، وفق المعادلة الحضارية التطبيقية ذات الأبعاد الأربعة: [العلم + والخلق + والذوق الجمالي + والتقانة التكنولوجية]، فالقراءة تمكنه من معرفة مكانته وكرامته بين سائر الموجودات والمخلوقات، لقوله

١- انظر: دراستنا عن مالك بن نبي، مجلة الأحمدية - عدد ٢٠، جويلية ٢٠٠٥م، دبي.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)، ولقوله تعالى في التسخير الطبيعي: ﴿.. وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣)، ولقوله تعالى في التسخير النسقي بين البشر: ﴿.. لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا..﴾ (الزخرف: ٣٢).. وأقواله وتوجيهاته القرآنية سبحانه وتعالى في أشكال التسخير معرض من معارض الجمال والسحر والروعة التربوية والتعليمية والقانونية والإدارية والسياسية..

وهذا التسخير الإلهي المذخور في قوى الطبيعة والكون المسخر كله للإنسان السائر الضارب في الأرض بحثا وقراءة وتعلما، لن يتأتى لهذا الإنسان، إلاّ إذا قرأ وبحث وتعلم واكتشف..

١١ - إمكانية السيطرة على المعرفة:

إن القارىء المتبصر لتاريخ صناعة الإنسان وتدرجه في تراكم المعارف والخبرات يتبين أنه قد مرّ في رحلته تلك وهو يصنع حاضره ويترسم معالم مستقبله بمراحل مهمة في صراعه وتنافسه وتدافعه مع قوى الطبيعة، فكان عمر المعرفة التي يتوصل الإنسان لمعرفتها يدوم قرنا، وبسعي الإنسان الحثيث إلى تطوير حاضره ومستقبله صار عمر المعرفة يتقلص شيئا فشيئا، فنزل لحقبة من الزمن، ثم تدنى عمرها إلى نصف قرن، ثم إلى عقد، ثم إلى سنوات فسنة، ثم إلى أشهر وشهر، ثم إلى أيام فأسبوع، ثم إلى ساعات وساعة، حتى وصل عمر المعرفة في القرن الواحد والعشرين إلى ثلاث دقائق في غياب العرب والمسلمين عن صناعة المشهد العلمي والتكنولوجي المعاصر[1].

١- انظر: ميتشو كاكو، رؤى مستقبلية - كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين -، ترجمة: سعد الدين خرفان، مراجعة: محمد يونس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٧٠، ربيع الأول ١٤٢٢هـ يونيو ٢٠٠١م، ص ١٢ و ١٣ و ١٥ و ٢٣ و ٢٤.

وهذا كله إنما تأتى للإنسان من جراء قراءاته العميقة وبحثه وسعيه الحثيث لتطوير حاضره ومستقبله، وتخفيف معاناته مع قوى الطبيعة، حيث تبين دراسة المعهد القومي الأمريكي للصحة بعنوان: **[الإنسان يسيطر على المادة والحياة والذكاء]** إلى أنه بحلول نهاية القرن العشرين كان العلم قد وصل إلى نهاية حقبة، كاشفا أسرار الذرة وجزيء الحياة ومخترعا الكومبيوتر الإلكتروني [١]، و«.. بهذه الاكتشافات الثلاثة الرئيسية التي انطلقت بتأثير ثورة الكم [QUANTUM] وثورة [D.A.N] و[ثورة الكومبيوتر]، تم أخيرا التوصل إلى القوانين الأساسية للمادة والحياة والحوسبة. إن هذه المرحلة البطولية للعلم تقترب من نهايتها، فقد انتهى عصر العلم، وبدأت معالم عصر آخر تظهر.. إن عصر الاكتشاف في العلم يقترب من نهايته ليفتح عصرا جديدا..» [٢].

ولولا هذا المستوى العلمي الدؤوب الذي هو ثمرة القراءة والمطالعة والبحث.. لما استطاع الإنسان فهم قوانين الطبيعة ونواميسها ومظاهرها وأسرارها ومجاهيلها.. واكتشاف كنوزها وخيراتها لأنها مُسخرة له بداءة.

وفي هذا الصدد يقول العالم ميتشو كاكو في كتابه القيم «**رؤى مستقبلية**» عن الأعمدة الثلاثة للعلم في القرن الواحد والعشرين: «.. تشكل هذه العناصر - المادة والحياة والعقل - أعمدة العلم الحديث، وعلى الأرجح سيسجل المؤرخون أن قمة الإنجاز العلمي في القرن العشرين كانت الكشف عن العناصر الأساسية التي تعتمد عليها هذه الأعمدة الثلاثة، والتي تمثلت في تحطيم نواة الذرة، وفك شفرة نواة الخلية، وتطوير الكومبيوتر الإلكتروني. وبإتمام فهمنا

١- انظر: ميتشو كاكو، رؤى مستقبلية، ص ١٢.

٢- انظر: ميتشو كاكو، رؤى مستقبلية، ص ١٢ و ١٣.

الأساسي للمادة والحياة تقريبا، فإننا نشهد إغلاق أحد الفصول الكبرى في تاريخ العلم..»[1].

والمتمعن في هذا المستوى العلمي والتكنولوجي والمعرفي الذي وصل إليه غيرنا تحكماً وسيادةً وتمكنا في الزمن المستقبلي، والذي وصلوا إليه بقدرة الفهم والتسخير للسنن والنواميس الإلهية التي لا تحابي مؤمنا ولا تَمتَنِعُ عن كافر، والتي تسير بفضل عدل الله وحكمته.. يتحتم عليه استحداث آليات فهم شرعية تستند إلى النصوص الشرعية لاستكناه ضوابط الرؤى المستقبلية في الإسلام، لأن مستقبلنا ليس زمنا يتعين علينا انتظاره، بل هو منجز يجب علينا تحقيقه وصنعه بأيدينا معتمدين على القواعد والضوابط والسنن التي ركبها الله في جبلتنا، من أجل التحكم والسيطرة على كل المخلوقات التي وضعها وخلقها الله لنا خادمة، وذلك بالقراءة والبحث.

١٢ - فقه السنن والتوقعات والمآلات:

كتب الأستاذ الشيخ عمر عبيد حسنة كلمة مثالية ودقيقة عن الاستشراف المستقبلي فقال: «.. إن استشراف المستقبل والإخبار عما سيقع في قابلات الأيام - وهو الصادق المصدوق - جاء نوعا من الإعجاز ولفت النظر لما يكون، واستشرافه من خلال مقدماته، من خلال استقراء التاريخ وقراءة الحاضر والتدريب على كيفية التعاطي مع هذه السنن، فالحاضر لا يخرج عن أن يكون مستقبلا للماضي وماضيا للمستقبل. والسبيل لاستشراف المستقبل يتمثل في النظر في المقدمات والسنن الفاعلة، وبذلك يتأهل الناظر لإبصار المستقبل والإعداد له، حتى جعلت قصص الأنبياء ومسيرة النبوة منجما لا ينضب على الزمن للنظر والاعتبار يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ

١- انظر: ميتشو كاكو، رؤى مستقبلية، ص ١٦.

مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ (هود: ١٢٠)، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)..»[1].

ومن هنا فإن الإسلام أخضع كل شيء لمعادلة التوكل على الله، وذلك باتخاذ كل الأسباب الموجبة لنجاح العمل، والقراءة والمطالعة والبحث والدرس هو السبيل الوحيد لإدراك هذه العلوم، ولا تعارض بين مبدئي التوكل على الله واتخاذ الأسباب المادية الموجبة لذلك، وهو ما قرره الإسلام بداءة، وإن حاول بعض قصار النظر إيجاد تعارض بين المستقبل الذي هو غيب ومحاولة التخطيط والإعداد له الذي هو - بزعمهم - معرفة علم الغيب. فإن الرؤية الشرعية الواضحة والوسطية المتزنة - التي نحن عليها - ترى أن الغيب من اختصاص الله تعالى، وإعداد الوسائل وتحضير الواجبات واتخاذ الاحتياطات وتوفير الشروط.. وما إلى ذلك فرض شرعي أو كفائي على الفرد المسلم، وهو لا يتعارض مع مبدأ التوكل على الله عالم الغيب والشهادة معا.

ومن هنا صار من اللازم على الفرد المسلم التأسي بمبدإ سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في البحث عن ربه ومعبوده الحقيقي بين طمي الآلهة والأصنام وهو يقول ليخبرنا ويعلمنا بضرورة اتخاذ أسس ومراحل وضوابط المنهج العلمي البحثي المنضبط لمعرفة الحقيقة الكبرى، وهو التعرف على الله القائل - ليعلمنا ويربينا -: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ

١- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب:- إلياس بلكا، استشراف المستقبل في الحديث النبوي الشريف، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٢٦، رجب ١٤٢٩هـ، ص ٧.

مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٥ - ٧٩).

وقد أفاض النص القرآني - بالرغم من اقتضابه - في وصف هذه المرحلة، ومنحها المميزات التالية: [١]

١ - أنها رحلة عقلية نظرية للبحث عن الله من خلال تتبع جزئيات وموجودات الطبيعة والكون والحياة، وهذا هو عين العقل والبحث العلمي والمنهجي.

٢ - أنها رحلة علمية منهجية تتبع فيها سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام جزئيات وظواهر متشابهة، ثم وصل عليه الصلاة والسلام إلى مبدأ التعميم الشمولي المطلق، مُقعّداً لأول مرة في الوجود لأبجديات منهج الاستقراء.

٣ - أنها رحلة تعليمية وتكوينية وتربوية.. الهدف منها التأكد من مرجعيته ومحدداته المقدسة حيال ربه سبحانه وتعالى، وقد كشف الله عن روح البحث والاستكشاف المكنونة في نفسية نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام في غير هذه الآيات منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

٤ - أنها رحلة اعتمدت الملاحظة الأولية المجردة الخارجية، فالملاحظة الداخلية التي أنارت في أعماقه عين البصيرة، فتكاملت العينان فيها، عينا البصر والبصيرة بهدف الوصول إلى معرفة حقيقة الله.

١- انظر: أحمد عيساوي، منهج الدعوة عند أنبياء الله: نوح، إبراهيم، يوسف، موسى، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، ص ٤٦.. ١٠٠.

٥ – أنها رحلة توفرت فيها إرادتان ونية سوية، إرادة المولى تبارك وتعالى، وإرادة نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ونيته السوية.

٦ – أنها رحلة استغرقت حيزا واضحا من صيرورة الاطراد السنني والتعاقب الزماني والمكاني، بحيث ذكر فيها المولى تبارك وتعالى الليل مرتين، وذكر النهار مرة واحدة، وأراه كوكبا في الليل، والقمر أيضا، ثم أراه الشمس نهارا مرة واحدة وهي بازغة، ليتأهل بعدها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام للوصول إلى الحقيقة المطلقة عن الله تعالى، ويدرك الفاعل الحقيقي والمسبب الأول.

٧ – لخص في ختامها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسس ومقومات أطره المرجعية المقدسة حول ربه بقوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٩).[١]

فالقيام بهذه العمليات العقلية والمنهجية التالية: [الملاحظات، الافتراضات – الفرضيات –، المقدمات، تسبيب الأسباب، التطبيقات، الاحتمالات، النتائج، الاستقراء، النتائج..] هو من صميم الوحي المقدس، فلا مجال لإقحام العقل في مجال الوحي، ولا سبيل لما نظمه الوحي وقننه إلاّ لعقل ناضج يقرأه ويفهمه ليحسن تطبيقه[٢].

١٣ – إمكانية فقه الأبعاد الزمانية والمكانية:

ومن القراءة والمطالعة والبحث يتمكن العقل المسلم المعاصر من فقه ثلاثية الزمن أولا [الماضي، الحاضر، المستقبل]، ثم فقه ثنائية المكان والإمكان، ومن ثم فقه آليات التعامل معهم، والتخطيط للمستقبل ووضع

١– انظر: أحمد عيساوي، منهج الدعوة عند أنبياء الله: نوح، إبراهيم، يوسف، موسى، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، ص ٤٦.. ١٠٠.

٢– انظر:– إلياس بلكا، استشراف المستقبل في الحديث النبوي الشريف، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٢٦، رجب ١٤٢٩هـ، ص ٨ و ٩ و ١٠.

الخطط الدقيقة التي يتوصل إليها العقل البشري، غير ناس أو متناس أساسيات وأركان الإيمان والغيب والقضاء والقدر والتوكل على الله ﷻ القائل: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤)، أو ما يسمى اليوم في الدراسات الاستراتيجية بـ: علم المستقبليات، أو الدراسات المستقبلية أو الاستشرافية [١]. أو ما يُسمى في منظومتنا التفكيرية الإسلامية بعلم السنن والنواميس وقوانين التسخير الإلهي في الأنفس والآفاق..، التي ملّكها الوحي للعقل، ليضطلع الوحي بما وُجد من أجله وهو الإجابة على التساؤلات الكبرى ونواميس الضبط والتنظيم الكلية والكبرى في الحياة المقننة فيه من لدن رب العزة وسنة المصطفى ﷺ، ويضطلع العقل بميادين التقانة والمدنية الحياتية، فنربح الوحي والعقل معا، ولا نخسرهما معا في معركة غير حقيقية إلاّ في أوهام أصحابها، ولا يتأتى ذلك إلاّ بعقل ناضج يحسن القراءة والفهم والتحليل والنظر.

١٤ - آلية الفهم السنني والآفاقي السديد:

إن القارىء المطلع الباحث يتبين بالقراءة التحليلية التدبرية الواعية أن الله خلق الكون وربطه بالسنن والنواميس المطردة التي لا تتغير إلاّ بإرادته ﷻ، كما خلق الله ﷻ آلية التوقع والاستقبال أيضا، والتوقع المستقبلي ينطلق أساسا من التدبر في آليات السنن والنواميس الإلهية لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (فاطر: ٤٣ - ٤٤)، وعليه فالسننية في الهدي النبوي صنو السننية في القرآن الكريم، وهما بوابة التأسيس الرئيسية والأساسية للدراسات المستقبلية الاستشرافية، والأمثلة من السنة النبوية المطهرة في هذا الباب

١- انظر: محمد بريش، حاجتنا إلى علوم المستقبل، و أحمد صدقي الدجاني دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة.. و غيرهما نقلا عن:- إلياس بلكا، استشراف المستقبل في الحديث النبوي الشريف، ص ٢٩.. ٣٦.

كثيرة جدا، وفي مجالات الحياة المختلفة أيضا، وقد بوب رجال الصحاح والسنن وغيرهم الأبواب في مجال التوقع والفتن والنوازل وفقه الافتراض والأحاجي والألغاز..، فضلا على اعتبار المآل المستقبلي في الأفعال كمقصد رئيس من مقاصد الدين، وهو أصل من أصول النظر والاجتهاد والتحقيق في الشريعة الإسلامية، التي تتحقق بالقراءة الواعية والفهم الرشيد، والبحث السديد[١].

١٥ - آلية التخطيط والبرمجة والتطبيق:

إن آلية التخطيط والبرمجة والإعداد والتحضير لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ..﴾ (الأنفال: ٦٠) أصل من أصول هذا الدين المستقبلي، وهي لا تتعارض البتة مع القضاء والقدر، إذ المطلوب من المسلم الرشيد السعي الحثيث والضرب في الأرض والبرمجة والتخطيط والإعداد الشهودي، وترك ما يخبئه الغيب الإلهي ضمن احتمالات التوقع المستقبلي أيضا، بحيث يُخطط ويُبرمج ويُعد ويُحضر.. ولا يترك تمام وكمال المشروع بإهمال أسبابه، بل يتخذ كل الأسباب البشرية ويُعفي نفسه من مجاهيل القضاء والقدر والغيب وهو عين الاعتقاد السليم، الذي لا يمكن أن يصل إليه الفرد المسلم إلاّ عن طريق القراءة والبحث[٢].

١- السنن في هذا المجال كثيرة جدا ك:١ - سنة الحفاظ على النظام العام: فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه» أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤٣٣٨ وغيره. والأحاديث في ذلك تترى كحديث ابن عمر رضي الله عنهما: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلاّ سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلاّ جعل الله بأسهم بينهم شديد» أخرجه ابن ماجة.

٢- انظر::- إلياس بلكا، استشراف المستقبل في الحديث النبوي الشريف، ص ٥٧.. ١١٧.

ولعلنا نُرسي معالم المستقبلية وعلاقتها بالسببية والسننية التي هي أصل من أصول الحياة الإسلامية بما ذهب إليه الشيخ العلامة العربي التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري (ت ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م) من أنه.. معلوم لنا في أول ما ركز الله في عقولنا أن، جلت قدرته، «ربط حلقات هذا العالم ربطا محكما، وجعل لكل شيء علة تتقدمه، وترتبط به ارتباطا وثيقا، وجعل المسببات تنشأ عن أسبابها عند ملابسة المكلف للأسباب، وتنعدم عند انعدام أسبابها. ذلك خلق الله عند حضور الأسباب الموضوعية للسببية وسننه التي عرفها عباده وعلمهم سببيتها، وكيفية التسبب، وأراهم أنهم على قدر إحسانهم للتسبب وعلمهم بالأسباب، وبراعتهم في التذرع والتماس الذرائع المنهية إلى المسببات، يكون فوزهم بالمقاصد، سواء في ذلك التسبب الديني في الشرائع، أو التسبب الدنيوي في الحياة ومرافقها.

وإذ أفهمنا ربنا هذه الأسباب التي تُعد سنته في خلقه، ورحمته التي قام عليها عمران هذا العالم الأرضي، وبات عملنا بهذا التنظيم الإلهي علما ضروريا عاما في كل عصر ومصر وأمة، لا يشذ عنها أحد إلا في أحوال استثنائية، ولا يختلف فيها سبب عن سبب عرفت سببيته، ولا يخرج عن مسبب من المسببات الشرعية، ولذا فقد وجب على القائمين بالإصلاح في هذه الأمة أن يدخلوا في هذه السنة عملا لا اعتقادا فقط، وأن يتخذوا من الذرائع والأسباب والوسائل المباشرة ما يُفضي إلى المقاصد التي نصبوا أنفسهم لتحصيلها، وقصدوا لخدمة الأمة من جهتها، وأن يلتمسوا من الأسباب ما تحققت سببيته..»[1].

فالاستشراف واستقبال الحياة القادمة والمتوقعة بفضل الله وإرادته سنة من سنن المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي ترك لنا الكم الكثير من

١- انظر: آثار الشيخ العلامة العربي بن بلقاسم التبسي، جمع وتحقيق وتعليق الدكتور أحمد عيساوي، مطبعة الوليد، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م ١٤٢٧هـ، ص ٩٨، بتصرف.

سنته عليه الصلاة والسلام الدالة على أهمية وضرورة الاستعداد للغد القريب والبعيد في الدنيا، تمهيدا للاستعداد للآخرة، فضلا عن أحاديث الاستقبال كأحاديثه ﷺ التي تبدأ بقوله: [أتدرون ؟ أخبروني ؟ أتعلمون ؟ جئت تسأل ؟ أخبرني ؟ دلني ؟ يأتي، لو ؟ لولا ؟ لوما ؟ كيف بكم بزمان ؟ ستدركون ؟ سيولى، سيكون، سترون، سين، سوف، هل ؟ أما ؟..][1].

وأحاديث الاستعداد ليوم الرحيل والاكتفاء بقوت اليوم والتوكل على الله الرازق.. إنما هي لدفع الأنفس الأمارة بالسوء الراغبة في الخلود والمعنة في الظلم والجبروت واتباع الغي.. والتي لو تلقتها الأنفس السوية لبانت لها طرفا المعادلة دونما تعقيد، وهي لا تتعارض البتة مع النظرة الزهدية السوية، إذ الزهد التحكم في النفس والعيش الوسط.

ودفعا لأي مظنة نسوق هديه ﷺ الاستشرافي المستقبلي فيما يرويه عنه الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه، وهو يقول: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين»[2]. والملاحظ أنه ﷺ قد قصر هذا كله على هذه الأصناف، وهو عين الاستشراف المستقبلي السني الوسطي، الذي لا يتأتى إلاّ بالقراءة الواعية المستنيرة.

ولا تقتصر القراءة على تحصيل المنافع التغييرية العامة فحسب، بل تتعداها إلى المستوى الفردي، الذي هو أس المنافع ومنطلق عملية التغيير.

١- الأحاديث في هذا المجال كثيرة جدا، كحديث العرباض بن سارية وعظنا رسول الله موعظة.. وحديث أبي هريرة عن ركاب السفينة أن قوما استهموا سفينة حديث خير القرون قرني، وحديث يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، وحديث لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد الذي رواه أبوداود والنسائي وابن حبان في كتاب المساجد.. وحديث الفسيلة، والحديث الذي رواه أنس بن مالك يأتي على أمتي زمان يتباهون بالمساجد ثم لا يعمرونها إلاّ قليلا الذي أخرجه أبويعلى في مسنده وفي صحيح ابن خزيمة، وحديث عائشة رضي الله عنها لو استقبلت من أمري ما استدبرت.

٢- مشكل الآثار للطحاوي، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ، رقم ٣٢٦٩.

- **المنافع على المستوى الفردي:**

تعد القراءة الحرة والمستمرة أحد معابر تكوين الفرد الصالح، وأهم جسر يعبر عليه لمرحلة ما بعد التغيير، إذ يستطيع عبر كثرة قراءاته وتحليلاته وموازناته ومقارناته.. أن يترسم حشد الأمراض والعقد الكامنة فيه، ولعل أهم منافع القراءة التغييرية على المستوى الفردي ما يلي:

أ - حل مشكلات إنسان مرحلة التخلف:

إن أهم مشكلة تعترض الأمة الإسلامية للنهوض من العِثارِ الحضاري: مشكلة الإنسان المتخلف، ولذا تعتبر القراءة التحليلية السديدة، والفهم العميق والرشيد، أحد معابر فهم وتفكيك مشكلة هذا الإنسان، وقد سئل المفكر الإسلامي العالمي مالك بن نبي - يرحمه الله - عن اللحظة المناسبة لخروج الأمة العربية من التخلف، فأجاب قائلا: «يوم أن نرتب الأشياء وفق ما رتبها خالقها سبحانه وتعالى، فعندما نذهب إلى السوق ونملأ السلة بالخضار والفواكه واللحم، ثم ننعطف إلى المكتبة فنقتني كتابا أو مجلة أو جريدة، ثم نضعها فوق سلة الطعام، ونعود إلى بيتنا، ونحن نفكر كيف وضع الله الرأس فوق البطن، ونشعر بحاجة عقلنا ورأسنا إلى الغذاء كحاجة جسدنا للطعام، وإلاّ تحولنا إلى مجرد آلات هضمية يمكن استعبادها والتحكم فيها»[1].

هذا الفرد المتخلف القائم منذ عصر ما بعد سقوط دولة الموحدين في المغرب والأيوبيين في المشرق، هو الذي يجب أن يتوصل، بالتحليل والنقد والتقييم والتقويم والقراءة التحليلية العميقة والواعية، إلى أنه:

١ - هو الفرد المنشطر بين زمانين، زمان الحضارة العربية الإسلامية

١- من مقولات المفكر مالك بن نبي في حوار مع الأستاذ العربي عثماني التبسي شهر جوان سنة ١٩٩٧م، أحد تلاميذ مالك بن نبي بمدرسة التهذيب سنة ١٩٣٦م، حيث درسهم الأستاذ مالك بن نبي الرياضيات والفيزياء لعدة أيام فقط ثم اختلف مع مدير المدرسة الشيخ العربي التبسي وغادرها إلى فرنسا.

الزاهي الزاهر الذي أفل من واقع وحكم وتوجيه الحياة اليوم، وبين زمن تعيس بئيس قبيح متعثر ذليل فاسد.

٢ - هو الفرد الذي لا يعيش عصره البتة، بل هو غائب بإرادته واختياره، أو مُغيّب عنه بالرغم منه.

٣ - هو الفرد الذي صار يمثل ظاهرة اجتماعية وثقافية وفكرية وتربوية وأخلاقية عامة تشمل جميع أفراد المجتمع العربي والإسلامي، وليس حالة فردية يمكن محاصرتها وعلاجها.

٤ - هو الفرد الذي صار يشكل حالة انتكاسة حقيقية وانفلاتة سلوكية وقيمية باتجاه تعزيز قيم البداوة على قيم الحضارة والتحضر والمدنية، على الرغم من آلاف الدولارات التي أُنفقت من أجل بناء مدن ومدنية متطورة لخدمته وجعله بعيدا عن قيم البداوة التي تبدو جلية في تعامله مع منجزات الحضارة المعاصرة.

٥ - هو الفرد الذي صار يجسد روح الانهزام والتراخي، وواقع القابلية للاستعمار، والتبعية للآخر القوي فكريا وثقافيا ومعرفيا وأخلاقيا..

٦ - هو الفرد الذي تتنازعه عقدتان متباينتان: [الاستعباد، العبودية]، فهو مستعد لأن يمارس دور الدكتاتور والعبد أيضا في حالة توفر الظروف وانتفائها.

٧ - هو الفرد الذي تتحكم فيه عقدة بروز الأنا الفردي على الأنا الجمعي وانعدام توازن خنوس الأنا الفردي على حساب الأنا الجمعي.

٨ - هو الفرد المُعقد بعقدة الذُهان، على حد تشخيص المفكر مالك بن نبي، حيث يعتقد الفرد المتخلف قدرته على فعل كل شيء، واستبساط واستسهال كل شيء.

وهنا يكمن دور الوعي الحقيقي بالمشكلة، انطلاقا من وعي الفرد المتخلف بحالته وحالة غيره من المنتكسين روحيا وحضاريا، الذي هو: إما مناط النهضة ؟ أو جادة الانكسار ؟

وهو ما جهله أو تجاهل عنه منظرو النهضة، ولن يتأتى له ذلك إلاّ بالقراءة التحليلية والنقدية الواعية والعميقة، وهو عين ما ذهب إليه المفكر الزنجي الفرنسي [ألبير كامي] صديق الثورة الجزائرية وأحد دعاة الثورة والتحرير من ربقة الاستعمار الفرنسي، حينما كتب جملة عن الكتابة والقراءة في مقدمة كتبه، فقال: «لا أريد إلاّ شيئا واحدا، وأطلب ذلك بكل تواضع، اقرأوني بانتباه شديد»[1].

ب - المنافع العقلية:

فالقراءة الحرة والمطالعة الدورية المدروسة والمنظمة تُخرج القارىء من إسارات التلقين والحفظ وشحن الذاكرة والاكتساب والادخار والببغاوية المُغردة، وتنقله بكل اقتدار وحيوية وتفوق إلى سائر العمليات العقلية والإدراكية الكبرى بدءا من: الملاحظة فالفرضية فالبرهنة فالتجربة فالتأمل فالتفكر فالتوسم فالنظر فالتحليل فالمقارنة فالموازنة فالنقد فالتقييم فالتقويم، فتنمية الفكر والعقل والروح والنفس وسائر القوى البشرية في الفرد القارىء[2].

والقارىء الممارس لفعل القراءة بشكل يومي واعتيادي لن يكون في يوم من الأيام امتدادا لمن سبقه بكل ما تعني كلمة التقليد والامتداد الشكلي والروحي والمعنوي من معنى، ولن يكون القارىء يوما ما استمرارا للطفيليات الماضية، وُوسُوقاً للتكديس والحشو والتقليد والدوران في عقل السابق،

١- انظر: المعذبون في الأرض.

٢- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر، عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ٢٣ و ٢٤ ، بتصرف.

بل سيكون بناءً جديدا سامقا، يختصر بعد الجمع من القراءة التحليلية والنقدية الواعية، «.. لأن الذاكرة والحفظ أولى وظائف العقل، والتفكير والمقايسة والمقارنة أعلى مراتب التفكير، فالإصرار على الحفظ والذاكرة يعني التوقف عند أولى مراتب العقل، وعائق يساهم بطرد أصحاب العقل والتفكير، وبذلك ينقلب التعليم من حل إلى مشكلة..»[1].

فالعقل طاقة خلاقة وهبها الله للإنسان وميزه بها عن سائر المخلوقات ليتمتع بها وليستغلها وفق ضوابط ونواميس ومقاصد خالقها عملا بالمبدإ الإلهي: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى: ١١)، لا ليعطلها على حساب الاعتماد الكلي على الوحي، بحجة أن الوحي أغنى الإنسان عن كل شيء، حتى السير في الأرض والتدبر في أمور الحياة والمعاش والتنمية والتقدم والازدهار، مكبلين العقل ومخرجينه عن مساره كنعمة من نعم الله وُضعت له فضاءاته من لدن الوحي المقدس إلى جهاز أسيء فهمه واستخدامه، ينعكس سلبا على مطلوب الوحي المقدس منا.

فالوحي قدّم نسقا معرفيا مهما للإنسان، وترك مساحة بارزة للعقل البشري ليمارس فضيلة التنعم بعبادة ربه، فلكل وظيفته وحدوده ومساحته ومكانته.. وكلاهما يمد الإنسان بما يحتاجه لأداء رسالته الصحيحة في الحياة.

والفهم السليم يحتم على العقل الناضج الخروج من الشراك المنصوب له من أصحاب التدين المغشوش، الذين مازالت معادلة الوحي والعقل غير واضحة لديهم، على الرغم من كون العقل هو محل الخطاب والتكليف، كما يحتم عليه الخروج من إسار المنحازين إلى القراءة الظاهرية للنصوص المحجرين على العقل والمتهمين إيـاه، وينفلت من عقال المؤلهين للعقل

١- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر، عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ٢٣ و ٢٤ ، بتصرف.

الواضعين إياه مقابل الوحي، فهذه الأصناف الثلاثة أزرت بالعقل، ولم تفهم سبب خلقه وتمييز الإنسان به عن سائر المخلوقات.

ج - المنافع الوجدانية والنفسية:

تشكل المطالعة إحدى المنافع التغييرية الأساسية على الصعيدين الوجداني والنفسي للإنسان القارئ، فقد أثبتت الدراسات العلمية التي أُجريت على شريحة من القراء: حجم ونوع ودرجة الراحة النفسية التي يتحول إليها القارئ بعد تحصيله للكم المعرفي الذي كان يحتاجه، ولاسيما بعد ردمه فجوة الغفلة والجهل التي كانت تُخيم على مداركه العقلية والنفسية والوجدانية، فتعمل تلك المعارف الجديدة على ضخ الدماء المعرفية الجديدة في نفسيته، فتتحول نفسيته تلقائيا إلى وضعية جديدة مغايرة لما كان عليه، وذلك بفعل ممارسته لفعل المطالعة الدورية والاعتيادية، فيغدو سعيدا مستبشرا منطلقا عارفا مزهوا بمعرفته تلك[١].

والمطالعة التغييرية التي ندعو إليها، تهدف إلى «.. شحذ الذهن وإثارة الفاعلية وتنمية المهارات وبناء الشخصية الاستقلالية وتأسيس قيم الحرية واستشعار المسؤولية وتأصيل قيم الشورى والحوار والمثاقفة والتدريب والنظر والاجتهاد والإبداع.. وإدراك أن الاستبداد بكل أشكاله هو ثمرة التخلف، أو هو التخلف حقيقة، وعدو التنمية بكل أبعادها..»[٢].

وهي المطالعة التي تُخلّص كاتبها وُمُنشِئَها وقارئها أيضا - وعلى حد سواء- من كل العقد المرضية والنفسية الدفينة. «.. إن كونك الفيلسوف الأكثر مبيعا لا يعني بتاتا أنك الأكثر مقروئية ولا حتى أنك المقروء على نحو جيد ؟ فمنذ زمن بعيد وأنا أكتب أمورا لا أحد يقرأها أو بالأحرى

١- عن مواقع إلكترونية مهتمة بالقراءة والمطالعة والمقروئية، تاريخ الدخول ٢٠١٣/٠٦/١٦م.

٢- من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر، عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ٢٧، بتصرف.

لا أحد يراها. أعتقد أنه إذا ما تجاوز الحد عددا معينا من القراء، سيضحى النجاح مجرد سوء فهم ليس إلاّ».

فأول وآخر وكل وسائر.. المنافع الخيرية التغييرية، إنما تتأتى من خلال ممارسة فعل القراءة المقدس. لأن الحديث عن القراءة شيء وممارسته شيء آخر لا علاقة له بسابقه، على حد ما ذهب إليه الكاتب والناقد المغربي «عبد الفتاح كليطو» عندما تحدث عن عقدة «الذُهان»[1]، التي مست قطاعا كبيرا من النخبة المثقفة، والتي صارت تتحدث عن القراءة ولا تقرأ، وتدعو الآخرين لممارسة هذا الفعل دونما أن تعلم أنها معنية بذلك الفعل ممارسة قبل غيرها.

هذا الفعل المقدس الذي عبّر وأجاب عنه الفيلسوف والمفكر الفرنسي، وأحد منظري الثورة الفرنسية فولتير (١٧٨٦-١٧٨٩م) يوما عندما سُئِلَ عمن سيقود الجنس البشري مستقبلا، فأجاب قائلا: «الذين يقرأون، ويعرفون كيف يقرأون»[2].

❋ القراءة سبيل النهوض:

ولذلك كانت القراءة ومازالت وستبقى سبيل النهوض والتغيير والنهضة الأوحد، ولكن المشكلة تكمن في هدفية وكيفية القراءة، التي يجب أن تكون لتأكيد إنسانية وكرامة وحرية الإنسان على حد قول الشيخ عمر عبيد حسنة حين نوه بممارسة فعل القراءة المقدس عند الأمة المسلمة فقال: «.. «فنحن كنا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب، كما كان الحال عند مجيء النبوة، فلما

١- أول من نبه وأشار إلى تفشي عقدة الذُهان في الفرد المتخلف الموروث بعد عصر الموحدين المرحوم مالك بن نبي، وهي عقد دفينة خبيئة متخفية في نفسية الإنسان المتخلف، يتوهم دائما أنه: قادر وجدير ومستطيع على فعل وإتقان كل شيء، والحقيقة مغايرة لهذا كله، حيث لا يستطيع ولا يقدر على شيء سوى الكسل والكلام والنقد الفارغ.

٢- من مواقع إلكترونية تهتم بالقراءة والمقروئية، تاريخ الدخول ٢٠١٣/٠٦/١٦م. مجلة العربي، عدد ٦٥٤، مايو ٢٠١٣م، ص ٣٤.

أحسنا التعليم والتعلم وأحسنا القراءة الهادفة كنا خير أمة أُخرجت للناس في مجال البناء والعطاء والشهود الحضاري.. ذلك عندما عرفنا كيف نقرأ، ولماذا نقرأ، وكنا نقرأ لنتعلم، لا نتعلم لنقرأ، كما هو الحال اليوم، وكان شعار القراءة: القراءة باسم الله الأكرم، بكل ما تحمل تلك القراءة باسم الله من دلالات وأهداف وتوظيف العلم للتنمية والارتقاء، وكان التخوف الدائم من أن تتحول القراءة عن أهدافها في الخير والعدل والسلم والرحمة إلى نوع من البغي الذي تسانده المعرفة، ذلك أن الكثير من الإنتاج العلمي اليوم يتمركز في تنمية أشياء الإنسان على حساب الإنسان، بل بالإمكان القول إنه يتمركز في معظمه على التكنولوجيا التي تمكّن من الهيمنة والغلبة والسيطرة والتسلط. فالعلم إن لم يُربط بمرجعية قيمية وأهداف إنسانية يتحول إلى ظلم وبغي وتفرق وتخلف وكهانات، حتى في المجال الديني، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ (الشورى: ١٤).. لذلك كان من دعاء الرسول ﷺ، ومن يسير على قدم النبوة من بعده: «أللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» (أخرجه مسلم)..»[١].

تلك الأمة التي كانت تقرأ، وتعرف كيف، ولماذا، ولمن، وممن، ومتى تقرأ؟ فلا يهمها سوى النصوص التي تُربكها وتتحداها وتُغذيها بالمعرفة، وتثيرها معرفيا.

ولكنها لما تعثرت وانهارت منظوماتها القيمية والأخلاقية والرسالية، غابت عنها كل هذه المؤشرات في عالم القراءة، وأوشكت أن تدخل في نفق التقليد والتبعية، حتى بتنا نخشى أن يكون هذا العصر الذي نعيشه، هو: عصر نهاية الكتاب والكتّابِ العظام، على حد قول الكاتب والفيلسوف الفرنسي

١- من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب الأستاذ: حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ص ١٨ و ١٩.

«تزفتيان تودوروف» حين استشرف ساحة القراءة والكتابة في ظل الفوضى العولمية، فقال: «لا أريد أن يكون هذا العهد عهد نهاية الكتاب الكبار سيكون محزنا ألا ينتمي كل الكبار سوى للماضي..»[1].

فهل من تغيير أصيل بغير هذا ؟

وهل من نهضة حقيقية بغير هذا ؟

وهل من َقوْمَةٍ حضارية شاملة بغير هذا ؟

وهل من وعي رشيد بغير القراءة ؟

اللهم اشهد، لا.

١- انظر: مجلة العربي، عدد ٦٥٤، مايو ٢٠١٣م، ص ٣٤.



الفصل الخامس

الكتاب الورقي والكتاب الرقمي

- تجربة جيلين -

- أهمية الكتاب في الحياة السوية:

وبعد أن توضحت لنا المنافع والفوائد التغييرية التي يُحدثها فعل القراءة الواعية في صاحبه وفي جماعته والمحيطين به، نود أن نتعرض في الفصل الأخير لوسيلتي القراءة اليوم ممثلة في «الكتاب الورقي»، الذي بدأ يشهد تراجعاً مخيفا ومقلقا عن الساحة الثقافية والفكرية والعلمية والأدبية والإعلامية والتربوية والتعليمية.. و«الكتاب الإلكتروني»، الذي بدأ يزحف بشكل مخيف ولافت للنظر على سائر مجالات المعرفة، لِيَلْتَهِمَ بين عشية وضحاها التراث الورقي المديد، الذي بلغ عمره آلاف السنين. وبعد أن كان الأدباء والكتاب والنقاد والشعراء يتغنون بالكتاب كوسيلة مهمة ووحيدة للمعرفة على حد قول «أبو الطيب المتنبي ت ٣٥٤هـ»:

أعز مكان في الدُّنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب[1]

استعاض عنه جيل اليوم بالصورة الملونة والأزرار والأضواء والألوان والسرعة البرقية والأشكال والرسومات الجميلة والبديعة التي يتفنن في صناعتها جهاز الكومبيوتر في العوالم الافتراضية الحالمة، ولكن هذا الزحف الأخاذ كله لن يستطيع أن يُلغي لدى المستنيرين هذا التراث الفكري والثقافي والحضاري الموروث، فيبقى له قدره ومكانته ودوره، طالما أن الله ﷻ قد أثنى عليه في القرآن الكريم، وامتدحه، وأشار إليه في العديد من المواضع القرآنية على مختلف المعاني والوجوه.

ومع مزاحمة الكتاب الإلكتروني والبرقي للكتاب الورقي وإزاحته من الساحة بشكل خطير على التحصيل المعرفي الرصين والثبت للأجيال والنخب المثقفة، فقد تلاشت سائر أدبيات القراءة والتدوين والكتابة والأخذ والطلب والتعامل مع الكتاب الورقي، الموروثة عن العهود الإسلامية الزاهرة السالفة، التي صنف في تقنياتها وهيآتها وأنواعها الجهرية والصامتة

١- انظر: ديوان أبي الطيب المتنبي، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، دون تاريخ وطبعة، ص ٥٤-٥٦.

الأقدمون والمحدثون أيضا، لتستعيض عنها الأجيال المعاصرة بتقنيات وفنيات معرفية جديدة مغايرة لطرق التعامل: التأملية والرصينة والأصيلة والهادئة..[1]، الأمر الذي أوجد وضعا معرفيا مفزعا وغير سوي، وساعد على تفشي حالة تعليمية وتربوية وثقافية وأدبية ولغوية خطيرة جدا، حتى كادت تصير ظاهرة عامة لدى عموم النخب الجامعية والمثقفة في الأجيال المسلمة اليوم، مما تطلب التنبيه على أهمية الاستفادة من التراث الورقي وعدم الاستغناء عنه، وضم المنجزات الإلكترونية إليه، والاستفادة منهما معا في نهضة ورفعة الأمة، وليس تعويض منجز بمنجز كما يفعل بعضهم.

فالكتاب الورقي منجز حضاري مهم وَمَعْلَمٌ بارز في مسيرة حضارتنا العربية الإسلامية، ومن جميل ما قرأت وما قيل في وصف الكتاب سَرْدِيَّةُ وسَجْعِيَّةُ الداعية الأديب الأستاذ الدكتور «عائض القرني» منبها وموصيا طلابه ومريديه بالكتاب قائلا: «.. يا بني: عليك بالكتاب، فإنه خير الأصحاب، وهو روح المؤانسة، وقوت المجالسة. أقسم الله بالكتاب المسطور، في رق منشور، لأن الكتاب كنز الإفادة، وعنوان السعادة، وهو أمين لا يخون، وعزيز لا يهون، إن حملته في النادي شرفك، وإن جهلت أحدا عرفك، يقوي جنانك، ويبسط لسانك. بالكتاب يجلس الصعلوك على كراسي الملوك، يُقوّم الزلل، ويسد الخلل، ويطرد الملل، ويشفي العلل، يحفظ الأخبار، ويروي الأشعار، ويكتم الأسرار، ويُبهج الأبرار، وهو أشرف لك من المال، وأطوع لك من الرجال، وأنسى عندك من العيال، وبه تقارب الكمال.

والكتاب إذا خان الصديق وفّى، وإذا تكدر الزمان صفا، يُنسيك جحود الجاحد، وحسد الحاسد، وضغينة الحاقد. خليل ما أملحه، وصاحب ما أصلحه، وصامت ما أفصحه، يُقرأ في كل زمان، ويُطالع في كل مكان،

١- انظر: راشد علي عيسى، مهارات الاتصال، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٠٣، رمضان ١٤٢٥هـ، ص ١٢٠.. ١٣٠.

على اختلاف الأفكار، وتباعد الأمصار، بشير ونذير، ونديم وسمير، إذا وعظ أبكاك، وإن حدّث أشجاك، وإذا بشّر أفرحك.

يقودك إلى الكرامة، ويُبعدك من الندامة، ويطرد عنك السآمة. هو نسب ما أشرفه، وهو بوابة المعرفة، وخلاصة الفلسفة، يصلك بأساطين التفسير، من كل عالم نحرير، وإمام شهير، ومحقق بصير، ويُحضر لك المحدثين، أهل الرواية الصادقين، والدراية العارفين، وجهابذة النقل الواعين.

ويجمع لك الفقهاء، رواد الشريعة الغراء، وأرباب الفهم الأذكياء، ويُتحفك بقصيد الشعراء، ونتاج الأدباء، وبيان البلغاء، وإنشاء الفصحاء.

جزى الله الكتاب أفضل ثواب، فقد أغناك عن البخلاء، وكفاك الثقلاء، وأجلسك مع النبلاء، وعرّفك بالفضلاء. يُوفي لك الكيل، ويُقصّر عنك الليل، وهو تاجك في كل ناد، وأنيسك في كل واد، وهو سلوة الحاضر والباد، وخير ما أنتجه الله للعباد.

اصرف له أثمن الأوقات، وأنفق عليه أعظم الهبات، ولا تُطع فيه أهل الشهوات. هو الذي حبب إليك الزمان، وأجلسك في صدر المكان..»[1].

ويبين الأستاذ جمال كاتوت الخبير في الحاسوب الإلكتروني أهمية ومكانة وفضل الكتاب الورقي على الإلكتروني فيقول: «.. فعندما أجلس أمام الحاسب أتذكر عملي وأنسى ما دون، ثم إنني وفي هذا العمر أتعب من القراءة على الكمبيوتر بسرعة، بينما أستمتع بقراءة الورق الذي لا يحتاج إلى تشغيل أو كهرباء أو كبسات، فقط حرّك أصابعك لتنتقل بين الصفحات؟ وبالإضافة إلى ما ورد أعلاه فإن الإخراج الفني على الكمبيوتر وأسلوب العرض والتصفح والانتقال بين الصفحات بدائي جدا ولا يساعد

١- انظر: عائض القرني، خير جليس، جريدة الشروق اليومي، الخميس ٢٠١٢/٠٧/١٢م الموافق ٢٢/شعبان/١٤٣٣هـ، عدد ٣٧١٣، ص- ٢١.

على القراءة، بالإضافة إلى أنه يتطلب الاتصال مع الإنترنيت لساعات حتى تتمكن من قراءة المجلة، كما لا يمكن الاحتفاظ بأي نسخة من المجلة كمرجعية أو أحد مصادر البحث العلمي الموثق..»[١].

فنحن إذن أمام رؤيتين للكتاب الورقي، الأولى: تقليدية نسقية وفيةٌ، تَهيمُ حد الهيام والعشق والومق والفناء في الكتاب الورقي، والثانية: تضعه موضع المقارنة مع الكتاب الإلكتروني من خبير في عوالم الحاسب الآلي، واللافت أن تذهب كلا الرؤيتين أيضا مذهب التفضيل له. ما يدفعنا إلى تقديم قراءة علمية متوازنة عنهما من خلال تجربة جيلي الذي هو: جيل الورق، وجيل أبنائي الذي هو: جيل «السيليكون»[٢].

- **بين تكاليف ثقافة جيل الورق وجيل السيليكون:** نُشر خبر في العديد من الصحف والمجلات والدوريات العربية [٣]، ونال كبير اهتمام وحضور إعلاني متميز عبر الومضات الإشهارية في الكثير من الفضائيات العربية، وكان هذا الخبر قد صاحب حملات الترويج الإعلاني لمسلسل الصحابي الجليل «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، ومفاده: «أن تمويل هذا المسلسل الديني التاريخي العملاق كلف مبلغا يعادل مائة مليون (١٠٠) مليون دولار»، طبعا، وتزيد التحليلات والمقالات المكتوبة في مجال النقد السينمائي وأبحاث الدراما التاريخية الهاوية والمتخصصة مثمنة هذا العمل الفني الضخم، الذي أخذ من الوقت المناسب والكافي للتعريف الشامل والدقيق

١- انظر: جمال كاتوت، ورقي أم ورقي، مجلة العربي العلمي، العدد ٥، مايو ٢٠١٢م، ص ٧١.

٢- السيليكون: نسبة إلى وادي السيليكون في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو المادة التي اكتشف منها هذا العنصر الحيوي في صناعة الحواسيب الإلكترونية. انظر: هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، فخ العولمة، ترجمة وتقديم: الدكتور عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم: الدكتور رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٩٥، أغسطس ٢٠٠٣م، ص ١٦٠..

٣- أشهر وأهم هذه المجلات: الدوحة الثقافية، ودبي الثقافية، والعربي الكويتية، والمجلة العربية السعودية، والكويت الثقافية، والفيصل السعودية.. وغيرها.. شهري رجب وشعبان ١٤٣٢هـ. فضلا عن الصحف والجرائد.

بشخصية الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما يليق بقدره ومكانته وموقعه من تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية، كما تم رصد ترسانة كبيرة من المخرجين والتقنيين والفنيين، وحشد العدد الضخم من الممثلين القديرين والمشهورين فضلا عن جيوش الممثلين الآخرين، وتسخير الركام الهائل من الوسائل والأدوات والتقنيات والفنيات.. وتخصيص المساحة الكبيرة للتمثيل الدرامي الناجح.. بغية إنجاح هذا العمل المتميز، وتقديمه للجمهور العربي والإسلامي في شهر رمضان المبارك بالشكل الذي يرضى عنه ويحقق له القبول والنجاح لدى الجماهير الإعلامية العريضة.

والمثير في الخبر المنشور مسألة المبلغ الضخم المرصود للتعريف بالخليفة الراشدي الثاني عمر رضي الله عنه، فهو عمل يستحق مثل هذا الاعتناء والتمويل في ظل الحملات المسعورة الهادفة للنيل منه ومن صاحبه الصديق رضي الله عنه والبقية الباقية من الصحابة وأمهات المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين، وهو المعروف عنه رضي الله عنه وأرضاه ورعه وتقواه وخوفه وحدبه وعفته عن أموال المسلمين، وفي اعتقادي لو أن الخليفة الراشدي عمر رضي الله عنه علم يوما أننا سنرصد مثل هذا المبلغ الضخم للتعريف بشخصه المتواضع الراغب عن الدنيا، لأقام الدنيا علينا ولم يقعدها رضي الله عنه. وليست المسألة كامنة هنا فحسب، بل - في رأيي المتواضع - كامنة في كلفة وثقل وضخامة فاتورة تعليم هاته الأجيال المتعلقة بالمخرجات الإلكترونية؟ أجيال الكهرباء والأزرار والشاشات والزجاج والأضواء الإلكترونية؟

وتساءلت عن كيفية تحصيل جيلي للثقافة والمعرفة والعلم والحقيقة والقيم.. قبل خمسين عاما خلت، وقبل أن نعرف السيليكون، وتصير حياتنا كلها زجاجات وأزرار وكهرباء وأضواء وشاشات مختلفة الأنواع والأحجام ؟ وكيفية تحصيل أجيال اليوم للمعرفة والثقافة بهذه الفاتورة المالية الباهظة والمكلفة ؟ هذا إن كان لها ثقافة ومعرفة ؟

كما تساءلت كيف تمكّن جيلي قبل نصف قرن مضى من التعرف على الخليفة الراشدي عمر ﵁، وغير عمر ﵃ أجمعين، وكيف تمكن من تحصيل سائر المعارف والفنون والآداب والثقافات واللغات والعلوم والقيم والأخلاق..، دون أن يكلف غيره ولو دولارا واحدا.

وإليكم المسألة في عالم الحياة الواقعية الحقيقية بين جيل الورق وجيل السيليكون، كما تحاورت فيها مع أبنائي الذين يمثلون جيل السيليكون العازف عن القراءة والكتاب، وأنا الذي أمثل جيل الورق والقراءة والكتاب.

- عربات الكتب الدمشقية أنموذجا:

يمكنني تلخيص تجربة جيلي الثقافية والفكرية والتمكنية والاقتدارية والموهبية عن كيفيات تحصيل العلوم والمعارف والثقافات واللغات والآداب والأخلاق والقيم الدينية في عبارة ومصطلح حيوي يمكن نعته بـ: «البيئة الثقافية». وكيف يمكن للبيئة الثقافية ولتربتها الخصبة والصالحة أن تضطلع بدور كبير وفعّال ومؤثر وناجح في تكوين أجيال واعية ومثقفة ومتميزة عقليا ووجدانيا وسلوكيا ولفظيا ولسانيا ومعرفيا. ولولا البيئة الخصبة والثرية والصالحة لما تثقف جيلي، ولما استطاع أن يطأ بقدمه ميادين النهضة والتقدم، ولما صار بهذا الحجم والتراكم.

فقد كان للبيئة الدمشقية المتميزة ثقافيا، والثرية معرفيا، والغنية قيميا ودينيا وأخلاقيا، والمتنوعة أدبيا وفنيا.. سنوات ١٩٧٠-١٩٧٥م - قبل تمكن حكم البعث منها - أثرها الكبير والمؤثر والفعال على أبناء جيلي، فبعد أن اجتاز جيلي المرحلة الابتدائية بكل صرامتها وانضباطها التربوي والأخلاقي والديني في مدرسة تقليدية دينية خاصة، اسمها مدرسة «التربية والتعليم الخاصة» والتي تجمع بين مقومات الأصالة ومستجدات ومتطلبات المعاصرة يومها، في حي «السويقة» العريق الواقع بين حيي «باب مصلى» و«كركون الشيخ حسن» المؤدي إلى «حي باب الجابية» وبالقرب من «تربة

باب صغير مدفن الصحابة والتابعين» رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، حيث تلقى جيلي مبادئ الإسلام والعربية والأصالة.. وتشكلت في أروقتها وعبر شيوخها الأفاضل أسس شخصية جيلي العربية الإسلامية، ودلف جيلي نحو حي «القنوات» العربي الشامي الأصيل بقلب العاصمة دمشق في إعدادية «حسن الخراط»، وتموقع ضمن تشكيلة فسيفسائية من مختلف الثقافات والديانات والأعراق، حيث كان أي قسم من أقسام أي إعدادية أو ثانوية يتشكل من الأعراق والديانات والثقافات التالية: [الدروز، العلوية، النصيرية، الإسماعيلية، اليزيديين، الآشوريين، الشركس، التركمان، الأرمن، الداغستانيين، المغاربة، المسلمين السنة بمختلف مذاهبهم، المسيحيين بمختلف مذاهبهم، الدمشقيين الأصلاء، الوافدين من الضياع والقرى والمدن السورية الأخرى، الفلسطينيين..]، وكان الكثير من أبناء الإعدادية من أبناء الطبقات المحترمة والميسورة والنافذة في دمشق، فمنهم من كانت أمه ممثلة، ومنهم من كان أبوه ملحنا أو عازفا في الإذاعة والتلفزيون السوري، ومنهم من مثل أدوارا في مسلسل «صح النوم» لغوار الطوشة، ومنها تخرج الكثير من الممثلين السوريين.. وكان لهذه التركيبة الفسيفسائية العجيبة - والتي قلما يجتمع مثلها لطلبة في المرحلة الإعدادية في أي بلد عربي آخر غير سورية - أثرها في تنويع مشارب وثقافة جيلي، وفي اطلاع جيلي على الكثير من ثقافات الشعوب والديانات والأعراق التي تعايش معها.

فضلا عن وقوع جيلي تحت نظر ورعاية تشكيلة من الأساتذة الرساليين، مختلفي الديانات والثقافات والأعراق والمذاهب والتوجهات والبيئات، الأمر الذي جعلهم فريسة سهلة لهم، حيث تمكنوا من جذبهم نحوهم، بكل هدوء ورصانة وإقناع، وصارت تتقاسم جيلي خطابات السياسة التعليمية الرسمية البعثية، ممثلة في المدير والموجه وبعض الأساتذة المتحمسين أو المجبرين على غرس قيم «البعث» في النفوس. وخطابات الأساتذة الآخرين، والكل

يجذب هذا الجيل نحوه بالشكل التربوي الذي يراه مناسبا..

فالأساتذة المسيحيون يحببون جيلي في دراسة اللغات الأجنبية، ولاسيما اللغة الفرنسية، ويتقربون من جيلي باللين والمحبة حتى أحبهم جيلي حبا كبيرا لمعاملتهم الطيبة.

والأساتذة الفنانون يحببون جيلي في الرسم والنحت والموسيقى وسائر الفنون، كبعض الأساتذة الفنانين السوريين والرسامين الشهيرين يومها، الذين كانوا يدعون جيلي لمشاهدة معارض لوحاتهم في قاعة العرض الفني في شارع الصالحية المجاور لتمثال «الحرية»، فيذهب جيلي فخورا معجبا لمعرض أساتذه، حيث يسير الأساتذة الفنانون بهم في سائر أروقة معرضه، ويدلونهم على أسرار لوحاتهم. ومنها عرفوا الدخول لدور السينما والمسرح لوحدهم بعد أن كان يصحبهم أخوالهم أو خالاتهم أو كبار البيت.

وهكذا أيضا حال أساتذة الموسيقى، الذين باتوا يحببون جيلي في العزف على سائر الآلات الموسيقية، بدءا بالآلات الإيقاعية: «البوق، الترمبيت، الطنبور، الطبل..» وصولا إلى الكمان والفيولونسيل والكنترباص، حيث كان بعض التلاميذ أبناء ملحنين وعازفين مشهورين في الإذاعة والتلفزيون السوري.. يشاركون الأساتذة في الرفع من قدرات جيلي الفنية.. فضلا عن مشاركات جيلي القسرية والدائمة في مسيرات البعث كيوم الثامن من آذار كل عام، وعيد الجلاء و عيد الحركة التصحيحية في تشرين ١٩٧٠م، والتي لم تستطع أن نؤثر في جيلي، الذي كان يتخذها فسحة للترفيه والتسلية.

كما كان الأساتذة يدفعون جيلي للذهاب إلى دور المسرح والسينيما والمتاحف والأماكن الأثرية، والمكتبات التاريخية، مثل المكتبة الظاهرية ورؤية المخطوطات، وتشرف جيلي برؤية مخطوطة كتاب «رحلة ابن بطوطة» عيانا، وزيارة المتحف الحربي والوطني والعتبات المكرمة وقبر صلاح

الدين وحي القيميرية وباب الجابية والسويقة وغيرها.

والحق أن الشام - وهي دمشق حيث يحلو لأصحابنا الدمشقيين تسمية دمشق بالشام - كلها متحف مفتوح.. حيث كان جيلي يتوقف عند سُبل المياه، حيث قبور العلماء والصالحين أمثال: ابن تيمية وابن عساكر والسبكي وابن حجر والذهبي..

فيما كان أساتذة اللغة العربية والتربية الإسلامية يقتنصون جيلي للحفاظ على صلاته وأخلاقه في الإعدادية أولا، حيث كان هناك مصلى خاص بالطلاب، ثم للذهاب معهم إلى المساجد التي يقيمون فيها حلقاتهم، أو يرشدون جيلي إلى المساجد التي تحفل بطلبة العلم كـ «جامع السنجقدار» في سوق الهال، أو جامع «منجك» وشيخه القدير العلامة الشيخ «حسن حبنكة الميداني»، أو جامع «زيد بن ثابت الأنصاري» وشيخه القدير المفضال «محمد عوض» وتلامذته كالشيخ «سارية عبد الكريم الرفاعي» الذي أخذ على يديه جيلي الفقه الشافعي.. وجامع «المنصور» وشيخيه الكريمين المفضالين «كريم راجح» و«عبد الحميد ياسين» الذي أخذ على يديه جيلي كتاب «الأذكار» للنووي.. والذين كانوا يحبون أن يرونا ونحن نحمل الكتاب حتى ولو كنا في نزهة في حدائق الشام الحلوة الأنيسة، فحمل الكتاب باليد كان علامة من علامات الهدى والرشاد بالنسبة لأبناء جيلي.

وصار جيلي يدلف لكل المجامع الفكرية والثقافية من غير عقدة، فلا يمكن أن يلتحق أحد من جيلي بحلقة الفقه ما لم يحفظ قصائد من ديوان المتنبي، ولا يذهب للمسرح حتى يقرأ المسرحية، ولا يحضر للفيلم حتى يقرأ قصته، ولا يحضر لحلقة الحديث حتى يشتري الكتاب، وهكذا.. حتى صار جيلي يعرف المكتبات، وسوق الكتب الشهير «المسكية «الذي كان في بوابة الجامع الأموي.. وسائر مكتبات دمشق، ودمشق يومها كلها مكتبات، وعربات تبيع الكتب على ناصية الطرق.

وحين خروج جيلي من المسارح أو دور العرض السينيمائي يجد أمامه صراخ وصياح أصحاب عربات الكتب ينادون على الكتاب بـ: «ليرة سورة واحدة» في تشكيلة استعراضية وبيعية دمشقية تنافسية وبشعارات شامية ثقافية لا مثيل لها في العالم كله، كأن يقول لك البائع وقد اقترب منك وهو يحمل الكتاب: «تعال اقرأ رواية المملوك الشارد لجرجي زيدان بليرة واحدة، وتعال تعرّف على تفصيل الرواية بثمن بخس.. و «هذه قصة مجمع البحرين» وهكذا كل ينادي على الكتب الموجودة عنده، ومنها صار جيلي يقتني الكتب بشراهة ولا يتفاخر باقتنائها فقط، بل بقراءتها ومطالعتها في أقصر وقت، فيتفاخر أمام أساتذته بقرأة رواية جرجي زيدان «أسير المتهمدي» في ليلتين فقط.. والعبرات للمنفلوطي في يوم ونصف.. ونور اليقين في أسبوع.. وهكذا..

وتعلم جيلي من أساتذته أن يمهر كل كتاب اقتناه بتاريخ اقتنائه بالتاريخين الهجري ثم الميلادي وكتابة اسم مدينة دمشق عليه، وتوقيعه في صفحته الأولى، ومن هنا بدأت تتشكل نواة مكتبة جيلي الخاصة.

*** منافع صراع الأفكار:**

وصار جيلي يعرض تجربته لأساتذته في القسم، وبُعيد كل حصة، ليتقرب منهم، وليطّلعوا على غرسهم الثقافي، فيذهب جيلي لأستاذ العربية والإسلام فيقولون له: «هل رأيتنا البارحة في جامع - الحيوطية - نستمع لدرسك الديني؟» فيقول لهم: «واظبوا على هاته الحلق فبها عز الدنيا والآخرة»، وقد صدق - يرحمه اللّه - وبرّ واللّه.

كما يذهب جيلي لأستاذهم الفنان فيقولون له: «لقد جئنا البارحة لصالة العرض في حي الصالحية ولم نجدك» وهكذا..

ويذهب جيلي إلى إمام مسجد «الحيوطية» بالمجتهد ويضعون أمام

محرابه قصتي: «النبي» و «الأرواح المتكسرة» لجبران خليل جبران، ليقولون له بلسان حالهم بأننا نقرأ، فينادي: «لمن هذين الكتابين ؟» فيسارع أحد أبناء جيلي فيقول: «هما لي»، فيقول له: «هذا رجل مسيحي ونحن نخشى عليك فساد دينك وأنت مازلت غضا طريا، لماذا اشتريتهما ؟» فيقول له: «لقد وجدتهما بنصف ليرة للواحد، فخيرٌ لي شراء كتابين اثنين من شراء كتاب واحد، فيعلم براءته وحسن نيته» فيقول له: «اذهب فاستبدلهما بكتاب شهداء الإسلام في عصر النبوة لمحمد سامي النشار، ولا تعد لقراءة أو شراء أي كتاب حتى تستشيرني، فيذهب فيشتري كتاب «شهداء الإسلام في عهد النبوة»، ويحتفظ بجبران خليل جبران ومصطفى لطفي المنفلوطي وجرجي زيدان وغادة السمان ونجيب محفوظ.. وغيرهم في مكتبته ويُخفي عليه فعله، ويقول له: «أنا لم أعد أقرأ لهولاء الكتاب الكفار كما تقول». وهو في قرارة نفسه لم يقتنع بعد بتوجيهاته ويواصل القراءة لكلا الاتجاهين.

وصار لجيلي وجهان، أو ثقافتان متباينتان، وجه يقابل به الشيوخ المسجديين ليرضوا عنه، ووجه يقابل به أساتذته الحداثيين التطلعيين ليحبوه ظاهريا، وصار جيلي يُخفي عن هؤلاء علاقته بالأساتذة المسجديين، كما يُخفي - بالطبع - أيضا علاقته بأساتذته المتحررين.

وتعلم جيلي من البيئة الدمشقية أخلاق المثقفين، إذ كان جيلي يُقلد أستاذه الفنان مسكه للغليون، وتقليد أصوات شيوخه المسجديين، فصار جيلا مثقفا وهو في شرخ الصبا.. وصار يضحك ويُخفي على شيوخه ويقول لهم عندما يسألونه عن قراءة كتب جبران وجرجي زيدان والمنفلوطي وغادة السمان ونجيب محفوظ و..: «أنه لا يقرأ سوى الكتب الدينية فقط»، وصار جيلي يتقي غضب وبطش ونكاية الأساتذة البعثيين والحداثيين والمتفتحين واليساريين والعلمانيين.. بالمنطق المغاير للمسجديين. لأن جيلي لم يقتنع بالعداء الثقافي، فالمثقف - في نظري - يقرأ كل شيء، وهو مأمور بالقراءة

المطلقة في عموم قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾. فقد كانت تستهوي جيلي روايات جرجي زيدان وسهيل إدريس ويوسف السباعي ومحمد عوض ونجيب محفوظ والمنفلوطي وجبران وغادة السمان ومحمد عبد الحليم عبد الله.. كما كانت تستهوي جيلي أيضا مصادر الإسلام من مختلف العلوم والفنون والتخصصات.. وقد تسنى لجيلي جمع الإثنين معا. كما كان جيلي يقرأ مجلة العربي منذ سنة ١٩٧٢م، ويسمع الأغاني والأناشيد ضمن فرق المنشدين الصغار في فرق الإنشاد المسجدية في الموالد والأعراس والمناسبات الدينية، ويعرف لكل نشيد مقامه، فهذا «نهاوند» والآخر «حجازي» والثالث «دوبيت» والرابع «سيكاه» وهكذا.

كما عرف جيلي تاريخ الإسلام من قراءة عدة مجلدات، بدأها بالكتيبات فالكتب فالمجلدات، منها علي يد الشيوخ، ومنها بنهمه الثقافي.. ولم يكلف جيلي التعلم سوى شراء كتاب بـ «ليرة سورية».. وعندما كانت تضعف ميزانية البيت ويسافر رب الأسرة للعمل خارج سورية، اضطر جيلي للعمل في العطل بـ «خمس ليرات» كل يوم في فيلات حي المزة من السابعة صباحا حتى السابعة ليلا، ثم يقبض ثلاثين ليرة كل نهاية أسبوع، ويقسم ميزانيته نصفين، نصفٌ يعين به أسرته الفقيرة، ونصف يدخره للعام الدراسي فيشتري به الكتب والبذلات المدرسية والأدوات ويدفع الرسوم، ويدخر ربع ليرة عن كل يوم حتى تحين عطلة الشتاء التي يعاود فيها جيلي النشاط والعمل، ويخصصون ليرة كل أسبوع لشراء كتاب، يقرأونه حين عودتهم من العمل ليلا.. ويوم رحلت إلى الجزائر سنة ١٩٧٥م اصطحبت في الطائرة معي مكتبتي وأنا ابن ثمانية عشر عاما وقوامها مائة وعشرون كتابا.

وهكذا نجح جيلي في التكوين المعرفي والفكري والثقافي والقيمي واللغوي...، ولم يُكلف أمته ودولته مؤنة مائة مليون دولار لمعرفة سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونجح في معرفة الكثير عن ماضيه التليد، وتلذذ

بالاطلاع على مجده الغابر بـ «ليرة» سورية واحدة، فكيف إذا أردنا أن نُعرّف هذا الجيل بسيرة أبي بكر وعثمان وعلي ومعاوية وأمهات المؤمنين والتابعين من الأئمة الأربعة وغيرهم من عظماء الإسلام.. فسنحتاج إلى ملايير من الدولارات، وهذا أمر غير منطقي، وليس أمرا اقتصاديا في العرف التجاري والاقتصادي أيضا ؟

*** الاضطلاع بالمهمة:**

وقد استطاع جيلي بدوره أن يُعَرِّفَ أبناءه ويشحذهم بالثقافة الدينية والقيمية والأدبية والفنية والتفتح على اللغات الأجنبية [الفرنسية، الإنجليزية]، وقراءة المجلات والكتابة فيها، وذلك بقراءة أهم مصادر الإسلام في اللغة والشعر والأدب والسيرة والتاريخ الإسلامي والفقه والحديث والتفسير والرقائق والأذكار.. فمثلا يكفي في السيرة والتاريخ الإسلامي أن تقرأ لهم بالتدرج ما قرأته أنت عندما كنت مريدا، كـ:

١ – شهداء الإسلام في عهد النبوة الأولى لمحمد سامي النشار.

٢ – نور اليقين من سيرة سيد المرسلين لمحمد الخضري بك.

٣ – مختصر سيرة ابن هشام.

٤ – سيرة ابن هشام.

٥ – سيرة ابن كثير.

٦ – البداية والنهاية لابن كثير.

٧ – صفة الصفوة لابن الجوزي.

٨ – العواصم من القواصم لابن العربي.

وهكذا، فلا يكلفك تكوين جيل مثقف وواع سوى تخصيص وقت ثابت لهم، والاهتمام بهم اهتماما رساليا، وتدريسهم ما تراه مناسبا لترميم

ثقافتهم في إطار الثقافة المنزلية الواجبة عليك كمسؤول أمام الله تلبّست بإنجاب جيل في الأرض، وأُمرت بترك ولد صالح يدعو لك. دون أن تحتاج لملايين الدولارات. فضلا على قدرتك في غرس العادات والقيم الطيبة فيهم.. وتحقيق الكثير من المنافع الدنيوية والأخروية.

❋ الورق والسيليكون:

وأحب هنا - وبعد نصف قرن من تجربة القراءة والمطالعة، ومن الرحلة مع الكتاب والمكتبات والكتب وما له صلة بها.. - أن أقوم بمقارنة حول إيجابيات الكتاب الورقي والإلكتروني، حسب تقييمي ورؤيتي وتصوري، حيث أملك مكتبة ورقية تقدر بعدة آلاف من الكتب، وأملك مكتبة إلكترونية تقدر بثلاثين ألف كتاب، على الرغم من الفارق الزمني بينهما في التعامل والألفة.

وهذه مفاضلة بين الكتابين الورقي والإلكتروني:

الكتاب الإلكتروني	الكتاب الورقي
١ – تشغيل الأزرار الكهربائية.	١ – قوامه تحريك الأنامل فقط.
٢ – تشغيل التيار الكهربائي المكلف.	٢ – تقليب الصفحات فقط.
٣ – إضاءة الشاشة بالأضواء.	٣ – النظر إلى السطور فقط.
٤ – صفحاته أضواء وألوان.	٤ – صفحاته فيها الأبيض والأسود.
٥ – تقييد والتصاق بالشاشة وأرق.	٥ – صفحاته تتميز بالراحة والسعة.
٦ – سرعة وبرق وخطف وأخذ.	٦ – صفحاته تتميز بالسكينة والطمأنينة.
٧ – فوضى وتذبذب وارتباك.	٧ – يدعوك للتفكر والتوسم والنظر.
٨ – جهد للنظر وإرهاق للعينين.	٨ – راحة للعينين والنظر.
٩ – إجهاد للقوى العاقلة والمُفكرة.	٩ – راحة للعقل وسكينة للتوسم.
١٠– وجود افتراضي وحضور وهمي.	١٠– وجود حقيقي وحضور واقعي.
١١– غير مضمون بسبب الفيروسات.	١١– ثابت وباق وخالد.
١٢– نخبوي وتخصصي للإلكترونيين.	١٢– جماهيري وعام وشامل.
١٣– عام وملكيته مشاعة للإلكترونيين.	١٣– خاص وذاتي أيضا.
١٤– برقي أخّاذ يحرمك من ملكة السكينة والطمأنينة الاكتسابية والمعرفية.	١٤– إكسابي إغنائي مُزود بالمواهب.. يكسبك المعرفة الزائدة فوق ما تبحث عنه.
١٥– يعلمك الاتكال والسرقة والأخذ والنقل في البحث العلمي وغيره.	١٥– يعلمك الجد والبحث والعمل والتدوين والكتابة والنسخ والنقل الرصين.
١٦– يزيد من لجاجتك وخفتك ويحرمك من الصبر ولداته من الأناة والتودة و..	١٦– يعلمك خلق الصبر ولداته من الأخلاق الأخرى كالأناة والتودة.
١٧– يحرمك من التمتع بقدراتك العقلية ومن السياحة الآفاقية والتأملية..	١٧– يعلمك السياحة العقلية والسباحة الآفاقية والتأملية..
١٨– مشوش مزعج يقتل فيك ملكات الصمت والسكينة والهدوء والاتزان..	١٨– صامت هادىء يعلمك الصمت والهدوء والاتزان..

الكتاب الإلكتروني

١٩- عام للناس كلهم كتاباً وقراءً، يختلط فيه الغث مع السمين.

٢٠- بارد جاف انعزالي فرداني.

٢١- معرض للسرقة والسطو على نطاق أوسع، ليس له مكان معروف ضمن الأسرة المعرفية.

٢٢- ُمخترق مُحرّف معرض للتزييف والتحوير..

٢٣- العبثية والتقلبية والتذبذبية منطلقا ووسيلة وغاية حالته ومنهجه، فتنطلق للبحث عن موضوع ما لتجد نفسك في أماكن أخرى.

٢٤- ُمتعب ومُرهق للجسم والأعصاب وخاطف العقل.

٢٥- ُ مشوش للعقل، وُمبعثر للفكر، ومُربك لسائر القوى العاقلةً.

٢٦- مرٍيح في التخريج.

٢٧- يسّر البحث العلمي الأكاديمي.

٢٨- سرّع بتخريج الأجيال السطحية..

٢٩ - الإخراج الفني على الكمبيوتر وأسلوب العرض والتصفح والانتقال بين الصفحات بدائي جدا ولا يساعد على القراءة.

٣٠- يتطلب الاتصال مع الإنترنيت لساعات حتى تتمكن من قراءة المجلة،

٣١- كما لا يمكن الاحتفاظ بأي نسخة من المجلة كمرجعية أو أحد مصادر البحث العلمي الموثق.

٣٢ - لا يمكنك تمييزه ولا استحضار شكله أو لونه أو حجمه أو أي أمر يتميز به.

الكتاب الورقي

١٩- خاص وأحادي وفوقي، الكتّاب فيه مهيمنون معتبرون مستوون على السوق.

٢٠- حميمي دافيء وصديق ودود.

٢١- محمي مصون محفوظ محترم له مكانه المعروف في المكتبة وضمن أسرته المعرفية في المكتبة.

٢٢- دقيق محفوظ غير قابل للتحريف ولا للتزييف ولا للتبديل إلاّ في الطبعة الثانية.

٢٣- القصدية والهدفية منطلقا ووسيلة وغاية حالته ومنهجه، فتنطلق للبحث عن موضوع ما ولتجد نفسك تسير خلف الموضوع المطلوب.

٢٤- مهدئ مريح للجسم والأعصاب والعقل.

٢٥- مُغذ للعقل وُمنعش للفكر وُمرطبٍ للذهن ولسائر القوىً العاقلة.

٢٦- متعب في البحث والتخريج..

٢٧- بطّأ البحث العلمي الأكاديمي.

٢٨- كوّن الأجيال الرصينة العميقة.

٢٩ - الإخراج الفني واضح والتصفح فيه سهل ويساعد على القراءة.

٣٠- الاتصال مع الكتاب الورقي سهل وميسر وسريع وممكن في الحين.

٣١ - الاحتفاظ به سهل وميسر وممكن في البحث العلمي وفي غيره.

٣٢- يمكنك تذكره واستحضار صورته ولونه وشكله وحجمه.. في ذهنك

* **الموقف منهما:**

والسعيد - في رأيي - من حازهما معا، ووازن بينهما معا. يستكين إلى الكتاب حيث السكينة والراحة الفكرية والسياحة العقلية والمعرفية. ويجلس إلى الشاشة حيث المكتب والبحث، وحيث لا يجد الكتاب الورقي، فيجمع بينهما، ويستفيد من فتوحات العولمة في البحث السريع، ولاسيما في عالم التخريجات والتصنيفات كالأحاديث والآيات والأشعار والأحكام وسائر المبحوثات. وقد جاء في الأثر: «طوبى لمن جمع منافع وفوائد المُنْجَزين». وكما قال الكاتب والباحث الإيطالي «رافائيل سيمون»: «لا أرى أن الانترنيت يفاقم الغباء الإنساني أو يقوض ذكاء البشر، فيوم أبصرت النور سكك الحديد، قيل إن القطارات تصيب الناس بالجنون جراء التنقل السريع من مكان إلى آخر ودفق الهواء الذي يلحق الضرر بالدماغ. والانترنيت لا يقوض الذكاء البشري، لكن الأساطير التي تحاك عنه ومفعوله السحري قد تحمل البعض على قررات متسرعة، فيسيئون استخدام قدراتهم»[١].

في الوقت الذي يجب أن نلوم فيه سوء استخدام الناس لها، لأنه مع طغيان شبكة الإنترنيت وسيطرتها على البشرية ارتفعت الكثير من الأصوات للتنديد بها فاتهمها الدارسون بكونها مسببة للكثير من السلبيات والخيبات للبشرية، فقد «اتهمها بعض الكتاب والمفكرين بقتل الكتاب وإفساد التعليم وتسطيح الثقافة وتخريب الصحافة وتدمير السينما والموسيقى وهتك الذاكرة الفردية وتشجيع العزلة والانطواء وغيرها من التهم الجاهزة، وهو في حقيقة الأمر شكل من الإسقاط لتصوراتهم عن الانترنيت..»[٢].

١- مجلة العربي، عدد ٦٥٤، مايو ٢٠١٣م، ص ٣٥.

٢- انظر: نصر الدين لعياضي، وهم الانترنيت أو أوهام مفكريها ؟، جريدة الخبر، عدد- ٦٨٥٢، الإثنين ٢٠١٢/٠١/١١م ١٥/ذو القعدة/١٤٣٣هـ، ص ٢١.

وتبقى شبكة الإنترنيت مجرد وسيلة صنعها الإنسان لخدمة الإنسانية فهي حسب رأي الدكتور نصر الدين لعياضي: «.. ليست إيجابية ولا سلبية في حد ذاتها، وإنما استخدامها هو الذي يجعلها كذلك، إنها نتيجة لأفعالنا. فالقيمة العلمية للتسليم بالآراء الجاهزة ذات الصلة بما فعلت شبكة الإنترنيت بالناس، تقل لأنها تتعاطى مع مستخدمي هذه الشبكات كمفعول بهم وليسوا فاعلين، وبالتالي تصادر الاختلاف بين البشر في استخدامها، وتتجاهل سياقات هذا الاستخدام.». [1]

فالإنسان الكامل السوي المتوازن هو حجر الزاوية في التعامل مع إبداعات الإنسان، وهو القادر على رعاية الأصالة الثقافية للكتاب الورقي، مع الاستفادة من إيجابيات الكتاب الإلكتروني.

والله أعلى وأعلم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

١- انظر: نصر الدين لعياضي، وهم الانترنيت أو أوهام مفكريها ؟، ص ٢١.

قائمة المصادر والمراجع

*** المصادر:**

- القرآن الكريم والتفاسير:

- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ج ١٥.

- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الكتاب الحديث، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ج ٣.

- كتب الحديث الشريف:

- صحيحي البخاري ومسلم.

- سنن أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة

- مشكل الآثار للطحاوي، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ.

- المعجم الأوسط للطبراني.

- المعجم الأوسط لأبو يعلى.

- السيوطي، اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة.

- إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ج ١.

- مصادر اللغة والأدب والمصطلحات:

- المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ١، و ج ٢، وج ٣.

- علي بن محمد بن علي.. الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م

- ديوان أبي الطيب المتنبي، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، دون تاريخ وطبعة.

- أدب الرحلات:

- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

- محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق، تحقيق الأستاذ أحمد بن جدو نشر كلية الآداب، الجزائر، مطبعة دار البعث، قسنطينة، دون طبعة، دون تاريخ.

- رحلة ابن بطوطة، من مقدمة الدكتور جمال الدين الرمادي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.

- رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

- محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق: على الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٣٩١هـ ١٩٧٦م.

- رحلة الورتيلاني، المشهورة بـ (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب، طبع الجزائر، ١٩٠٨م.

- التربويات والمناهج والرقائق:

- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج ١.

- أبو الحسن علي بن محمد القابسي القيرواني، أحوال المتعلمين وأحكام

المعلمين والمتعلمين، تحقيق: الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.

- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

- بدر الدين محمد بن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الضياء للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ١.

- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

- محمد بن سحنون القيرواني، آداب المعلمين، تحقيق: الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة، الطبة الثانية، ١٩٧٥م.

- المذكرات والآثار والخواطر:

- عبد الرحمن بن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق الشيخ محمد الغزالي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ.

- آثار الشيخ العلامة العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري، جمع وتحقيق وتعليق الدكتور أحمد عيساوي، مطبعة الوليد، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م ١٤٢٧هـ.

- محمد أبو الفضل، تقي الدين الهلالي كما عرفته، منشورات إدكل، المغرب، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

❊ الحوارات:

- حوار مع الأستاذ العربي عثماني التبسي الجزائري بمدينة تبسة شهر جوان ١٩٩٧م، وهو أحد تلاميذ المفكر مالك بن نبي بتسبة سنة ١٩٣٦م في مدرسة تهذيب البنين والبنات.

❊ المراجع:

- أحمد علي الحاج محمد، العولمة والتربية آفاق مستقبلية، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٤٥، السنة الحادية والثلاثون، رمضان ١٤٣٢هـ..

- أحمد شلبي، الفكر الإسلامي منابعه وآثاره، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٦م.

- أحمد عيساوي، منهج الدعوة عند أنبياء الله: نوح، إبراهيم، يوسف، موسى، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

- أحمد عيساوي، تيارات وقضايا فكرية معاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

- إبراهيم إمام، الإعلام الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.

- إبراهيم الفقي، إدارة الوقت، دار إبداع للإعلام والنشر، القاهرة، دون طبعة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- إبراهيم الفقي، البرمجة اللغوية العصبية وفن الاتصال اللامحدود، مكتبة المدينة علم ومعرفة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- إبراهيم الفقي، الطريق إلى الامتياز، دار الراية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

- إبراهيم الفقي، قوة الفكر،، دار الراية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

– إلياس بلكا، استشراف المستقبل في الحديث النبوي الشريف، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٢٦، رجب ١٤٢٩هـ.

– أمين نعمان الصلاحي، من وسائل القرآن في إصلاح المجتمع، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٢٧، رمضان ١٤٢٩هـ، السنة الثامنة والعشرون.

– بشير عبد الله المساري، لغة الخطاب الدعوي، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٤٣، جمادى الأولى ١٤٣٢هـ.

– تركي رابح، مناهج البحث في علوم التربية وعلم النفس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

– توفيق الطويل، أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م.

– جمال العيفة، الثقافة الجماهيرية، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

– حسن بن إبراهيم هنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، كتاب الأمة، قطر عدد ٩٨، ذو القعدة ١٤٢٤هـ.

– راشد علي عيسى، مهارات الاتصال، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٠٣، رمضان ١٤٢٥هـ.

– فؤاد عبد الرحمن البنا، العروج الحضاري بين مالك بن نبي وفتح الله جولن، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٥، جمادى الأولى ١٤٣٤هـ.

– قاسم عبدة قاسم، إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي، رقم ٧٨، اكتوبر ٢٠٠٩.

– عباس محمود العقاد، فلاسفة الحكم في العصر الحديث، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.

– عباس محمود العقاد، الفلسفة اقرآنية، مكتبة رحاب، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ.

– عبد اللطيف حمزة، الإعلام وتاريخه، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.

– عبد السلام ياسين، إمامة الأمة، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩. – عبد العزيز شرف، وسائل الإعلام ومشكلة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م. – طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

– عبد الله محمد الأمين، الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٣، المحرم ١٤٣٤هـ.

– عبد الله الزبير عبد الرحمن، دعوة الجماهير مكونات الخطاب ووسائل التسديد، كتاب الأمة، قطر، عدد ٧٦، ربيع الأول ١٤٢١هـ.

– عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٢، ذو القعدة ١٤٣٣هـ.

– مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

– مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

– محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، دار الشهاب، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

– محمد عدنان سالم، القراءة أولا، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

محمد صالح حمدي، القواعد الفقهية والمعاملات المالية، مركب المنار للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

- موفق سالم نوري، الأخلاق والسياسة قراءة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٤٨، ربيع الأول ١٤٣٣ هـ، السنة الثانية والثلاثون.

- مولاي باي الحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

- نسمة أحمد البطري، التلفزيون والمجتمع والهوية الثقافية - دراسة نقدية -، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م،

- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٦٥، جانفي ٢٠٠١م.

- هالة صلاح الدين حسين، تحية إلى عصر الورق ووداعا له، كتاب العربي، العدد ٨١، يوليو ٢٠١٠م، الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة.

*** المراجع المترجمة:**

- فرانتز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة: أنيس فريحة، مراجعة: وليد عرفات، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.

- ميتشو كاكو، رؤى مستقبلية - كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين -، ترجمة: سعد الدين خرفان، مراجعة: محمد يونس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٧٠، ربيع الأول ١٤٢٢هـ يونيو ٢٠٠١م.

- هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، فخ العولمة، ترجمة وتقديم: الدكتور عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم: الدكتور رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٩٥، أغسطس ٢٠٠٣م.

- فرانشيسكو خافيير كاريللو، مدن المعرفة: المداخل والخبرات والرؤى، ترجمة: خالد علي يوسف، مراجعة: عمرو عبد الرحمن طيبة، و محمد سيد محمد مرسي، كتاب عالم المعرفة، عدد ٣٨١، اكتوبر ٢٠١١م.

*** الرسائل الجامعية:**

- ياسين قرناني، استخدامات الطلبة الجامعيين لشبكة الإنترنيت طلبة جامع بسكرة وسطيف أنموذجا، رسالة ماجستير، غير منشورة، إشراف الدكتورة رحيمة عيساني، جامعة باتنة، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، سنة ٢٠٠٩-٢٠١٠م.

- سامية جفال، الثقافة الإسلامية في الصحافة العربية في ظل العولمة - دراسة تحليلية -، رسالة دكتوراة في الدعوة والإعلام والاتصال، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الله بوجلال، كلية أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام والاتصال، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة،

*** المجلات والجرائد:**

١ - المجلات:

- أحمد عيساوي، مالك بن نبي المفكر الإسلامي العالمي الذي استشرف قضايا عصرنا، مجلة الأحمدية، عدد ٢٠، جويلية ٢٠٠٥م، دبي.

- أحمد عيساوي، أثر الفضائيات الدينية على الخطاب المسجدي مجلة البلاغ، الكويت، عدد، ١٩٩٧، الأحد ٠٦/رجب/١٤٣٣هـ ٢٧/٠٥/٢٠١٢م، الحلقة الأولى. وعدد، ١٩٩٨، الأحد ١٣/رجب/١٤٣٣هـ ٠٣/٠٦/٢٠١٢م، الحلقة الثانية.

- أحمد عيساوي، البعد الزمني وأثره على الدورة الحضارية، مجلة البلاغ، الكويت، عدد ٢٠٠١، الأحد ٠٤/شعبان/١٤٣٣هـ ٢٤/٠٦/٢٠١٢م، الحلقة الأولى. والحلقة الثانية، عدد ٢٠٠٢، الأحد ١١/شعبان/١٤٣٣هـ ٠١/٠٧/٢٠١٢م.

- أحمد عيساوي، مقومات المشروع الحضاري عند نبيي الله نوح وموسى، الوعي الإسلامي، عدد ٤٩٦، جانفي ٢٠٠٧.

- أحمد عيساوي، مقومات المشروع الحضاري في سورة العلق، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٤٩٨، فبراير ٢٠٠٧م.

- أحمد عيساوي، مقومات المشروع الحضاري في سورة العلق، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٤٩٩، مارس ٢٠٠٧م.

- أحمد عيساوي، مواصفات حامل المشروع في سورة المدثر، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٠٠، أفريل ٢٠٠٧م.

- أحمد أبو زيد، تكنولوجيا بلا حدود، مجلة العربي، الكويت، عدد ٦٣٣، أوت ٢٠١١م.

- البشير آيت سليمان، القراءة، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٦٢، جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ أبريل مايو ٢٠١٢م، ص ٩٥.

- أنطوان زحلان، العلم والسيادة - التوقعات والإمكانات في البلدان العربية، مجلة المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٣٨٣، جانفي ٢٠١١م.

- إبراهيم آل عبد الله، التعليم والأمن في عصر العولمة، مجلة المعرفة، العدد ٥٣، نوفمبر ١٩٩٩م.

- إسماعيل سراج الدين، تداعيات الثورة المعرفية، مجلة العربي، الكويت، عدد ٦٣٥، اكتوبر ٢٠١١م.

- جمال كاتوت، ورقي أم ورقي، مجلة العربي العلمي، العدد ٥، مايو ٢٠١٢م، ص ٧١.

- رنه جوني، الشباب انقراض الثقافة العميقة، مجلة البيت العربي، عدد ١٨، مايو ٢٠١٣م.

- سمير إبراهيم حسن، الثورة المعلوماتية عواقبها وآفاقها، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، دمشق، المجلد ١٨، العدد ١، ٢٠٠٢م.

- مجلة العربي، عدد ٦٥٤، مايو ٢٠١٣م، ص ٣٥.

- المجلة المصرية لبحوث الإعلام، جامعة القاهرة، كلية الإعلام، عدد ١٣، سبتمبر ٢٠٠١م، ص ٥٠ و ٥٢.

- المنجي الزيدي، ثقافة الشباب ومجتمع الإعلام، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، العدد ١، المجلد ٣٥، يونيو وسبتمبر ٢٠٠٦م.

- مليكة حفيظ، واقع الكتاب الجامعي في الجزائر، مجلة البحوث والدراسات العلمية، جامعة الدكتور يحي فارس، عدد ٠٦ - مارس ٢٠١٢م.

- نبيل علي، إقامة مجتمع المعرفة كمحور للنهضة، مجلة المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، السنة ٣٠، العدد ٣٤٢، المجلد ٨، أوت ٢٠٠٧م.

- محمد سيد ريان، القراءة في العالم العربي، ملحق مجلة العربي البيت العربي، العدد ٦، ماي ٢٠١٢م.

٢ - الجرائد:

- عائض القرني، خير جليس، جريدة الشروق اليومي، الخميس ٢٠١٢/٠٧/١٢م الموافق ٢٢/شعبان/١٤٣٣هـ، عدد ٣٧١٣، ص ٢١.

- نصر الدين لعياضي، وهم الانترنيت أو أوهـام مفكريها ؟، جريدة الخبر، عدد ٦٨٥٢، الإثنين ٢٠١٢/٠١/١١م ١٥/ذو القعدة/١٤٣٣هـ، ص ٢١.

- المحاضرات:

- أحمد عيساوي، أثر الفضائيات الدينية على الخطاب المسجدي، قدمت لملتقى بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر العاصمة سنة ٢٠١٠م في ملتقى القرآن الكريم.

* المواقع الإلكترونية:

- مـواقـع إلـكترونـيـة تهـتـم بـالـقـراءة والمـقـروئـيـة، تـاريـخ الـدخـول ٢٠١٣/٠٦/١٦م.

- مواقع إلكترونية تهتم بتأثير الجانب الفزيولوجي للقراءة، تاريخ الزيارة ٢٠١٣/٠٦/١٦م.



سلسلة إصدارات روافد

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د. عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر (أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

أ. فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني

د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ. د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء.

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرباني

د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعر).

الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

د. فاطمة خديد

٤٦- في ميــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

٥٠- تـلاميـذ النبـوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د/ فـؤاد البنـا

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري ______________________

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني ______________________

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد ______________________

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب ______________________

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكر ______________________

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق ______________________

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي ______________________

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور ______________________

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي ______________________

٦٣- التـراث العمـراني للمدينة الإسـلامـيـة.

———————— د. خالد عزب

٦٤- فراشات مكة... دعوها تحلق.. (رواية).

———————— الروائية/ زبيدة هرماس

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

———————— د. خالد فهمي

———————— د. أشرف أحمد حافظ

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

———————— د. أماني حاتم مجدي بسيسو

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

———————— الشاعر طلعت المغربي

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

———————— د. محمد المنتـار

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

———————— د. إسماعيل إبراهيم المشهداني

٧٠- الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ.

———————— د. عباس أرحيلة

٧١- وسائلية الفقه وأصوله لتحقيق مقاصد الشريعة.

———————— د. محمد أحمد القياتي محمد

٧٢- التكامل المعرفي بين العلوم.

د. الحسان شهيد

٧٣- الطفولة المبكرة الخصائص والمشكلات.

د. وفقي حامد أبو علي

٧٤- أنا الإنسان (ديوان شعر).

الشاعر يوسف أبو القاسم الشريف

٧٥- مسار التعريف بالإسلام في اللغات الأجنبية.

د. حسن عزوزي

٧٦- أدب الطفل المسلم.. خصوصية التخطيط والإبداع.

د. أحمد مبارك سالم

٧٧- التغيير بالقراءة.

د. أحمد عيساوي

نهـر متعـدد.. متجـدد

هـذا الكتـاب

كما يجب علينا أن نعترف أولا، وبكل صراحة وصدق، أنه بيننا وبين ممارسة فعل القراءة المقدس إجراء الخطوة الأولى في هذا الفعل، وهي: الاستعداد النفسي والروحي والوجداني لتقبل ممارسة هذا الفعل بكل متعة وأريحية وسرور، ثم الاستعداد العقلي والإداركي لتثمين قيمة ومكانة وأثر هذا الفعل على النفس والجماعة والزمن الفاعل، ثم اختيار الكتاب والمكان الوقت النفسي المناسب، ثم استشراف قيمة ومكانة وعوائد فعلي القراءة والمطالعة المكرمين.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa